مختارات فصول

جمال الغيطاني

# منتصف ليل الغربة

٧

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

مختارات فصول

جمال الغيطانى

# ٧ منتصف ليل الغربة

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل


الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

# مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. عز الدين اسماعيل

تصميم الغلاف : حسين ابو زيد

الاشراف الفنى : راجية حسين

إشراف

سليمان فياض

أغسطس ١٩٨٤

# وقائع
# حارة
# الطبلاوى

## مذكرة ايضاحية حول واقعة
## رقم ١٠٦ قسم الجمالية «القاهرة»

انه فى يوم الاثنين ، وفى التاسعة صباحا ، حضر الى قسم الجمالية عدد خمسة أشخاص ، من سكان حارة الطبلاوى ، ثلاثة ذكور ، واثنان اناث وبيانهم كالآتى :

١ ـ حسن آفندى متولى : موظف بادارة مكافحة الدودة، قسم الفقس ، وزارة الزراعة ٠

٢ ـ فارس سعد (الشهير بأبى قورة) : صاحب مقهى بالحسينية :

٣ ـ شمعه لطفى : حكيمة بمستشفى الأزهار النموذجية ٠

٤ ـ عويس يونس : فران بناحية كفر الزغارى ٠

٥ ـ محاسن حسن : مدرسة ابتدائى ، تعمل بمدرسة النحاسين الابتدائية ٠

وتولى حسن آفندى متولى الحديث نيابة عنهم ، فأدلى بالبلاغ التالى :

« انه منذ ستة أيام قام دحروج النمرسى ، اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا ، وحتى السابعة ، بدون انقطاع ، بمخاطبة أهالى الحارة مستخدما بوقا مما يستعمله شرطة المرور فى الميادين والطرقات العامة ، وسبب ازعاجا للسكان ، علما بأنه يبتدىء كلامه بعبارات بذيئة ، تسب أهالى الحارة كلهم ، وتصفهم بأقبح الألفاظ ، وأنتنها وتمس العرض والشرف ، ونتج عن هذا اقلاق راحة المرضى ، والاضرار بصحة الحاج أحمد العتر تاجر الورق ، الذى يعالج منذ عامين بسبب أعصابه ، ولما زاد الحال ، توجه اليه عدد من سكان الحارة وجيرانه القدامى ، وطلبوا منه الكف فردهم بعنف ، وطالبهم بفعل مافى وسعهم ، وكرر مرات أنه حر ، ولايعنيه أحد ، ولايوجد نص قانونى يعاقبه ٠ لأن الجهاز الذى يستخدمه لايخضع للقيود المفروضة على استعمال مكبرات الصوت الكهربائية ، وذكر أرقام مواد ونصوص قانونية ، ثم حدثهم عن ماضيه الطويل ، اذ

عمل جنديا فى الخدمة السرية لقوات الأمن العام ، وأعلن (هناك شهود على ماقاله) ، أنه خرب بيوتا عامرة خلال خدمته ، وأن أحد أقاربه يعمل الآن بمنصب هام للغاية ، ويقوم بتمزيق كافة الشكاوى المرسلة ضده بعد اطلاعه عليها واحدة ، واحدة ، ثم أغلق الباب بعنف ٠ وفى الواحدة صباحا بدأ حديثه اليومى ، قذف من جاءوه واحدا واحدا بألفاظ بذيئة ، وعبارات غريبة ، عندئذ أطل بعض المستين ، صاحوا عليه راجين السكوت، واحترام الجوار ٠ فالنبى عليه الصلاة والسلام أوصى على سابع جار ، وهنا زاد بذاءته وسبهم بألفاظ تخدش رجولة كل منهم ، وأطلت غويشة امرأته لأول مرة ، وأعلنت وقوفها بالمرصاد لكل من تسول لها نفسها التهجم عليها ، أو على زوجها ٠ وقالت انها صاحبت حريم الحارة والحى أربعين عاما ، جمعت لزوجها دحروج معلومات تكفى لسد كل بيت بالجبس ، ثم ذكرت أمثلة، وسبب وقوع مشاجرات بين أفراد عائلات لم يسمع لهم حس من قبل ، مما اضطر السكان بعد ستة أيام من العذاب المتصل اللجوء الى الشرطة ، وأنهى حسن أفندى أقواله مطالبا الأمن العام بالتدخل لحماية الأهالى من المذكور وامرأته غويشة ، فالبيوت العامرة تكاد تخرب ٠

ومن ناحية أخرى أفاد مسعد أفندى القباطن أسفل المذكور ، أنه سمع مكبر الصوت أول ليلة وقيل فيه : «آلو .. آلو .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. الخ» وتلاوة البسملة عدة مرات ، وبعض آيات الذكر الحكيم، عندئذ طلع إلى دحروج ظنا منه أن مصابا وقع ، مما استدعى تجربة مكبر الصوت فى هذه الساعة المتأخرة تمهيدا لتلاوة القرآن فى اليوم التالى ، وعندما طرق الباب فتحت غويشة وقالت بدون مقدمات «أخيرا حانت الساعة» ، ولم تدع فرصة لمسعد أفندى كى يستفسر عن أى ساعة تقصد «انما أكملت» دحروج سيحقق ما انتوى .. قل لجيرانك ، وجيران جيرانك .. أخيرا .. حانت الساعة . ثم أغلقت الباب بعنف ، وأقسم مسعد أفندى على صحة ماحدث بفتحه المصحف على سورة ياسين ، ووضعه على عينيه وأقسم يمينا .

كما قدم المدعو فارس الشهير بأبى قورة ، شريطا سجل عليه بعض من أقوال المذكور عن طريق المكبر ، «تم تفريغ محتويات الشريط» واستعان بجهاز تسجيل ماركة جروندج خصصه لاذاعة أغانى أم كلثوم على زبائن المقهى ، وأفاد الجميع بأن الحارة لم تعرف القلاقل من قبل ، وتعد من أهدأ الحارات وأقلها فى عدد المشاغبات

والحوادث نادرة بها ، وسكانها مسالمون لايميلون الى ازعاج الغير ، ويحترمون القوانين والجوار الذى لايقل بالنسبة لاحدثهم عن عشرين عاما ، وآباؤها التلاميذ متفوقون ، ومنذ عشر سنوات جاء ترتيب سيد ابن الحاج نصيف الثالث على شهادة الاعدادية (وطالبوا باجراء بحوث وتحريات تثبت هذا) والآن لايستطيع الطلبة أستذكارا ، بسبب أعمال المذكور دحروج وامرأته غويشه» .

## ملحق ١

«محتويات شريط مسجل عليه بعض أقوال المذكور ، ولم يتضح فى هذه التسجيلات ، هل تمت ليلا أو نهارا ، ولم يعرف تاريخ كل منها ، برجاء وضع ذلك فى الاعتبار» :

١ ـ .. الا اذا اطلعتم بانفسكم ، ورأيتم مارأيت ، وهذا مستحيل ولم يتوفر لانسان قبلى ، أذكركم هنا بالمهن العديدة التى عملت بها ، اتقنت كل منها ، قضيت بها زمنا ، آذكركم بآخر أعمالى ، خدمتى خمس عشرة سنة فى صفوف الخدمة السرية بالأمن العام ، تنقلى بين جميع المديريات ، والمراكز والقرى ،

سفرى الى بعض بلاد العالم فى مهام خفية ، لن أتحدث عن تفاصيلهـا الآن ولكن سـيحين الوقت ، سـتذهلون ذهولا عظيمـا وتقولون ، كيف عاش بيننـا ؟ أكثر من ثلاثين عاما تواجدت بينكم ، هل شعرتم بى ؟ هل عرفتم أمرا واحدا عنى ؟ هل سمعتمونى أتحدث عن أحد بما لايليق ؟ طـال صمتى والآن يمكننى قـول مافى قلبى وعقلى ، سـتجدون كلامى شيقا ، البعض سـيضيق به مؤقتا ، لكنهم فى النهاية سيوجهون الى شـكرا ، لأننى قومت حياتهم وأظهرت ماتعرفونه ٠ ولكنكم تتجاهلونه ، لكن العذر حق لكم ياأهـالى الحارة المسـاكين ، من لديه خبرة عمر مثلى ؟ من أمسك ببواطن الأمور ؟ من أدرك الحقائق الخفية مثلى ؟ ٠

٢ ــ ٠٠ يامعلم يونس ، والله أرثى لك ، سخرت منى ولن أرد عليـك خـذها منى نصيـحة ، أنا لاأحب الشـجار ، ولا الوقوع فى مشاكل ، طول عمرى لم أقع فى مشكلة ، لم أقدم كمتهم الى أى مسـئول ، لأننى من زمن طيب ، زمن حلو ، زمن عائق ، رائق ، غير زمانكم الموحل ، الأغبر ، لكننى سأقوم المعوج فيه ، أدبر أموره وأوجهه ، يامعلم يونس ، أنا لن أفضـحك لكننى أنبهك الى ماغاب عنك ، طبعـا تعرف دكان المعلم ماهر المنجد

فى بيت القاضى ، كلنا ، كل أهالى حارة الفقر هذه ..
كلنا نعرف يامعلم . من يدخل بيتك بقرطاس الفاكهة كل أحد وأربعاء أنت تخرج حوالى العاشرة ويستلم مكانك فى الثانية عشر ، العيون تحفظ منظره بالجلباب الأبيض ، بخواتم الذهب والصندل البنى ، الحارة كلها تعرف ولا أحد يخبرك ، لماذا ؟ لأن ، سكانها عندهم مايكفيهم .. و ..

(ضجة ، تصفيق ، أشياء تسقط ، أصوات ...)

٣ ـ .. قبل أى كلام ، انتبه ياحسن أفندى ، ياراجل يادودة ، أنا لايفوتنى شىء أبدا . مامن نفس زائد لديكم الا أحصيته ، مامن همسة الا وترجف طبلة أذنى هنا ، ألا تعلمون أن جدى كان عالما كبيرا فى الأزهر وأنه ترك لى مخطوطا قديما وعلمنى كيف أستخدمه ، فأعرف منه المستقبل الآتى ونهاية أعماركم، ألا تدركون أننى تلقيت أمرا بالحديث اليكم عن طريق هذا المخطوط ، يمكننى أن أنبىء كل منكم بيوم يحين فيه أجله ، ومن لديه هذه المقدرة لايغيب عنه ذهابك الى قسم الجمالية ، تزعمك وفدا ضدى . شكوتنى ، طلبت ابقاء اسمك سرا وهذا جبن ، العجيب أنكم جميعا جبناء ، هذه سمة يتيمة توحد بينكم ، اذا خفت منى

أنا الفقير الضعيف الذي ناهز السبعين فلماذا لاتخش الله خالقي وخالقك ؟ بلغني ماقلته عني أمام مقهى البنان ، ماجرجته به امرأتي غويشة ، تهديك بأقاربك في وزارة التموين ، ماذا تظنهم فاعلين ؟ اعلم ياحسن .. ياأهالي حارة الطبلاوي الكرام ، أن ابن خالة امرأتي غويشة كونستابل ممتاز ، ولاينقطع عن زيارتنا ويرجوني كثيرا أن أرد زيارته لدرجة أنني خجلت منه واعلموا أن علبة سجائره تحت أمري ، أسحب منها وقتما أشاء ولكنني لاأستعين به قط على أعدائي ، لأن أحوالي وأموري التي لن أبوح بها قط تحميني وتجعلني ! ...

«امرأة» : الرأي لك يادحروج ..

ـ لن أرد على ماقاله الحاج سنوسي بائع العطر ..

«امرأة» : وصفك أوصافا دنيئة يادحروج ..

ـ لن أخرب بيته ياغويشة ، لن أذكر مصنع العطور الصغير داخل شقته .. الحاج يتهرب من الضرائب ياغويشة ومن التأمينات الاجتماعية ، ويستخدم أولادا صغارا ..

«امرأة» : ياخبر ... والنبى لاأعرف هذا كله ، تصور أنه يلف على صفوف المصلين فى الحسين .. يمسح أيديهم بالعطر ويبيع زجاجات صغيرة يقول عنها . بركة من عند النبى ، بركة من المدينة المنورة .

٥ ــ .. ياأهالى الطبلاوى ، يامساكين ، ياوجوه النحس ، ياأشقياء عندما أطهر حياتكم من الكذب . عندما أزيح عنكم النفاق والاضطراب ، وأنظم أموركم بطريقتى ، سأنزل اليه ، وأطلب منكم أن تحكموا عليه ، وتلقنوه درسا .

٦ ــ .. مثلا ، امرأة عمي بدوى عساس البهائم فى الأسواق تتحدث دائما عن أقاربها فى مصلحة السكك الحديدية ، والدى ، والثروات الطائلة ، دائما تكلمكم عن أهل زوجها الأشقياء الذين نهبوا نصيبه فى الميراث ، عم بدوى يرفع عليهم القضية ، لهذا فثمة ثروة ستأتيه يوما . عندئذ تشترى الست نعيمة بيتا فى مصر الجديدة حوله حديقة ، وتملأه آثاثا فاخرا وتفارق الحارة القذرة ، وأهلها الانجاس ، ياأهالى الطبلاوى البلهاء ، لأنني أعرف كل كبيرة وصغيرة لأننى أعلم خباياكم ، ماتظهرون وماتبطنون ، لهذا سأقول لكم الحقيقة ، الست نعيمة التى تتعالى علينا ، تحدثنا من

طرف أنفها ، لا أقارب لزوجها كما تقول ، لهـا أخت صغيرة لاتدرون عنها شـيئا أسـمها راجحة ، وتسـكن بدروما قديما فى حارة سيدى معاذ ، زوجها بائع هريسة متجول ، وحتى التزم الدقة ، أقول انه يبيع بطاطا فهو يمتلك فرنا فوق عربة يد ، راجحة تساعده فى كسـب العيش ، هل تدرون كيف ؟ عندما تتشاجر امـرأة مع جارتها تذهب اليها ، تمنحها قروشا قليلة ، أو ، قطعة لحم فى رغيف وتسـتعين بها ، أخت السـت نعيمة لهـا محاضر عديدة فى البوليس ، وعندما تقل المشـاجرات تحترف النـدب ولطم الخـدود وراء المـوتى ياأهـالى البلاوى ، ياأكذب خلق الله فى زمانى البعيـد الطيب ، وأين أنتم من زمانى ؟ أمثـالكم لايسـمح لهم بالعيش فيه ، آه ٠٠ راح زمانى الأخضر ، أيامه هنيات ، كنا فى الليل نسمع الأغانى فى المقاهى الدافئة ، نشرب الزنجبيل والقرفة ، نصلى الفجر ، فى نفس هـذه الحـارة ينزل الرجـال يصيحون على بعضهم ، كل منهم ينبه الآخر ، وفى الليل الرائق تسـمع القباقيب ، والماء والوضوء ، ثم نخرج جماعة الى الحسـين ، ونقابل النهـار بوجوه سمحة ونفوس راضية ٠ فى زمانى رأيت الأمان ذاته ٠ لا انسـان يخاف على ماله أو أولاده أو بيته ، وكلمـا رأيت مايجرى بينكم يدركنى والله رعب ولكننى ملازمكم

حتى أقوم المعوج وأعيد السيرة الصافية هنا فى حارة الطبلاوى وليلحقنا باقى الدنيا ، لن أسمح بتكرار ماقامت به الست نعيمة عندما زارت جارتها أم سهير ، وعندما دخلت لتعد شايا ، مدت يدها ودست ورقة نقدية قيمتها خمس وعشرون قرشا فى صدرها ، أنا الآن أدفع التهمة عن مجدى الابن الوحيد للست سهير والمتهم ظلما ، والمهم .. أننى لن أطيل عليكم ..

٧ ــ «أصوات مرتفعة» ياكلب .

يا ... اذ ... اذ ...

٨ ــ .. أرجوك يامسعد أفندى ألا تتساءل ماوصلني وصل وانتهينا ، وأنا واثق أنك وحدك تعلم مقدار النقود التى تخبئها ، الفلوس الفضية القديمة ، الفضة الحقيقية ، فئة القرشان والخمسة قروش ، والعشرة . أعرف عدد علب الصفيح المصفوفة فى منزلك ، وهوايتك ليلة الجمعة عندما تفرغ العلب من محتوياتها ، وتنشىء أكواما من النقود ، تغير أشكالها كما تشاء ، ثم تغسل النقود كلها فى طشت نحاسى كبير ثم تنام نوما هانئا ، بسبب هذه القطع من العملة والنقود الأخرى التى لن أذكر مكانها . لم تتزوج ، ذاب عمرك فى عملك . أذكرك بما فعلته الست نعيمة عندما سرقت

مبلغا تافها من أم سهير ! تعال نبحث عن السبب معا ، ثم دعنى أقل لك كيف نمنع وقوع هذا •

٩ ـ •• ياولد ياجابر ، ياسعيد ، زمانكما أجرب، لم تذوقا طعم النساء ، لم تستمتعا بأى شىء ، لو بيدى لحررت لكما جوازى سفر تهاجران بهما الى زمنى الأول، فيه عرفنا الأبكار الحقيقيات ، رأينا الحياء على حقيقته ، ذقنا المتعة ، الأنوثة الريانة ، كل ماتنالانه وقفة بلا جدوى أمام مدخل الحارة ، أصغيا الى •

١٠ ـ وأثناء قيام السيدة لواحظ •

١١ ـ •• أحمد العطار الشاب العفى الذى يركب الكبير قبل الصغير ، الفائح الرجولة ، هيه •• لكنه زمن مائع ، لايعرف فيه الرجل من الأنثى ، فالمقلوب معدول، والظاهر باطن ، ولاحول ولا قوة الا بالله العلى ••

## بعض الوقائع

•• كل ماقاله دحروج ، كتبه عبد المقصود أفندى ، لديه خبرة عمر فى كتابة العرائض والشكاوى • يعرف المدخل المناسب لكل شخصية وذى منصب مايجب قوله ومالايقال ، ذكر ماقيل فى حق امرأته ومايسىء الى فوقية ابنته التى دخلت سن الزواج • ماسيلفت نظر

المسئولين بوزارة الداخلية بالذات هـذا المطلب العجيب الذى وجهه المدعو دحروج الى الاهالى ، ضرورة تعديل أوقات نومهم ، بحيث يأوى الجميع الى أسرتهم فى تمام الرابعة والنصف بعد الظهر كل يوم ، مع مراعاة ظروف الذين يعملون فى نفس الفترة ، ثم يوقظهم دحروج عن طريق مكبر الصوت ليتحدث اليهم ، وينظم أمـورهم ، لم يكتف بهذا بل منح الأهـالى مهلة قـدرها ثلاثة أيام يتحولون فيهـا من نظام إلى نظـام ، يغيرون عاداتهم ، عبد المقصود أفندى سطر خطا ثقيـلا بالمداد الأحمر ، تحت حديث لدحروج ، قال فيـه : «منـذ الآن حـارة الطبلاوى لها ناموس غير النواميس» .

الآن يضيق عبد المقصود أفندى ، اضطر الى ذكر أقوال دحروج حول امرأته وجيدة ، سيفضح نفسه ، لكن من الضرورى جدا اثباتها ، اذ أنها التهمة الوحيدة الواضحة التى يمكن أن يعاقب عليها طبقا للقانون ، يتململ عبد المقصود أفندى اذ يتخيل تهامس النساء فوق السلالم حول زوجته «المرأة جنت على كبر» تؤكد أخرى أنها تعرف ماقاله دحروج من قبل ، وسكتت طويلا حتى لاتنهش عرض جارة قديمة ، مايطمئن قليلا أن دحروج حذر كل انسان ، رجلا أو امرأة ، من تناول مضـمون

حديثه بالزيادة أو التشويش ، لكن هل يكفى هذا لربط الألسنة ، قام ، تحسس الأرض بحثا عن شبشبه ، قضى اليوم كله فى البيت ينسخ العريضة ويرقب تصرفات وجيدة .

نظراتك غريبة ياسى عبد المقصود .

استعاذ بالله ، يحاول ألا يعلو صوته ، كل حركاته ونظراته تفسر الآن . كل ماتقوله هى يتحلل فى ذهنه الى حيرة ، الى استفسارات ، استجابتها أسرع مما يجب لمطلبه بمنعها من الطلوع الى عشة الفراخ فوق السطح ، حجرة الأسطى عبده بمواجهتها ، سائق النقل العام بمفرده ، ينام اليوم كله ، ينزل فى المغيب ليتسلم نوبة عمله ، ينظر الى امرأته ، ينهض صدرها ، لم تغب ملاحظته عن عين دحروج ، بل سخر قائلا : «هل يوجهه الأسطى عبده كما يمسك مقود العربة» . مايضايقه اضطراره الى ذكر هذا كله فى العريضة . ربما سخر منه المسؤولون . لكنه أحكم الصياغة ، عدد من الجيران علموا بنيته فى ارسالها ، أبدوا بشرا وعلقوا آمالا ، يعرفون شهرته . بل ان أحدهم قال بالنص : «هذه العريضة ستذبح دحروج ذبحا» لكن عبد المقصود الآن يتنفس ببطء ، لم يتشاجر مع امرأته يوما ، حتى بعد انقطاعهما

عن بعض فى السرير ، يذكر الآن حديثا لحسن أفندى متولى عن شهوة بعض النساء اذ يبلغن الخامسة والأربعين، يطشن ، ألقت ساعة الحائط ثلاث دقات مختصرة ، بعد غد يحين انتهاء المهلة المحددة ليبدأ جميع أهالى الحارة نومهم فى الرابعة والنصف ، سمع امرأته تتثاءب ، نظر اليها ، وحنق فى عينية .

## ( ٢ )

باق عشر دقائق .

فى الواحدة يعلو مكبر الصوت ، يزن قليلا ، يلقى دحروج تحية المساء ويلعن الدنيا القائمة، ويرثى الزمان القديم ، ويؤكد أنه سينتظر كل شىء ، ثم يتلو ماوصل اليه من أخبار ، يرد عليه البعض ، وتلقى الحجارة على نوافذ شقته المقفلة ، مهما حدث لن يفتح الحاج حمزة جزءا من نافذته المطلة على الحارة . حتى الآن لم يتعرض له دحروج ، مع مرور الأيام ، وقيام الهياج فى الحارة ، أيقن الحاج حمزة أن اعتبارات عديدة تدخل فى امتناع دحروج عنه ، أهمها أنه قضى أكثر من ثلاثين عاما ناظرا لمدرسة كتخدا الابتدائية . تلاميذه أصبحوا الآن رجالا، يقابلونه فى الطريق ضباطا ومهندسين وكتبة فى المصالح

الحكومية ، يصافحونه فى المقهى اذ يجلس مرتديا جلبابه الأبيض متأملا لاعبى الطاولة ، أيضا ربما يعلم عنه دحروج موقفه عندما عرضوا عليه منذ عشر سنوات الانتقال الى مدرسة الروم الابتدائية مع ترقيته ناظرا ، لكنه رفض ، آثر البقاء فى الحى الذى ارتبط به ، ومرت أربع سنوات كاملة قبل أن يصبح ناظرا لمدرسته ، يعرف أن دحروج لم ينجب ويرثى له ، بالتأكيد يعانى ضيقا وآلاما ، لو أنجب طفلا والحقه بالمدرسة لأولاه عناية خاصة ، الآن لايضيق بازعاج دحروج ، ليفعل مايشاء ، ليسب أهالى الحارة ، ليعيد الأمور فيها كيفما يشاء ، فعلا كثير من الأوضاع يجب تقويمها ، ليحدد للسكان نوعيات الطعام التى يجب أن يأكلوها يوميا ، المهم .. ألا يذكر شيئا عن بناته . دحروج عالم بكل شىء ، مطلع قطعا على أفكاره الودية ، انه أول من ينفذ تعليماته ، عندما طلب أن ينام الجميع فى الرابعة والنصف ، أسرع الحاج حمزة بتطبيق هذا على بيته قبل انتهاء المهلة بيوم ، بناته أبدين ضيقا وامتعاضا . أجبرهن على طاعته . لابد أن يتأكد لدى دحروج أن الحاج رجل طيب ، مرب فاضل كما تتحدث عنه كلمات الطلبة فى المدرسة ، كما وصفه المدير فى العدد السنوى من مجلة المنطقة التعليمية . فى كل

ليلة يصغى اليه ، اذ يسكت دحروج لحظات يمسك أنفاسه ، خشية أن توجه الفقرة التالية ضده ، تتعاقب عليه الانفعالات . مايرعبه أن يتحدث دحروج عن البنات ، بالأمس أبدت سعاد ابنته ضيقا ، تعودت عمرها كله استذكار دروسها من الخامسة حتى الحادية عشرة ثم تنام ، كيف تغير نظامها وامتحان التوجيهية مقترب ، أحاطها بذراعيه ، دفعها أمامه ، كاد يكم فاها ، قال : لاتزعقي ، عمك دحروج لم يتعرض لنا ، عمك حر . صباح اليوم جاء بيومي السائق بمصلحة السكة الحديدية ، قدم اليه عريضة قال ان نصف سكان الحارة وقع عليها ، والباقي سيوقع ، سوف تحدث العريضة صدى كبيرا لدى المسئولين ، خاصة بعد طلبات دحروج الغريبة من الأهالي ، واصراره على نومهم مبكرين ، وتوحيد طعامهم اليومي ، على أن يتولى الطهي بيتان أو ثلاثة يوميا لكل الأسر ، مقابل مبلغ يتفاوت طبقا لقدرة هذا وذاك يدفع أول كل شهر الى حسن أفندي متولي شخصيا ، قال بيومي ان المسئولين سوف يتدخلون فورا ، لأن العريضة سترسل بالتلغراف ، والمطلوب فقط قرشان والتوقيع ، الحاج حمزة لم يدع بيومي يكمل ، تفجر هدوء عمره كله .

« اسمع .. »

أسرع يطل من النافذة ، زعق مخاطبا أهالى الحارة بيومى وغيره • مع أن بيومى يقف فى الصالة ، انه لن يوقع على أى عريضة ضد جاره القديم دحروج النمرسى ، (وهنا علا صوته تماما ، وهذا مالم يعهده أهالى الحارة) • انه غير منزعج أبدا ، ومايفعله دحروج من حقه تماما ، سكت لحظة ثم زعق انه لايمت بصلة الى حارة الطبلاوى ، ولايعتبر من سكانها لأن مدخل بيته وشرفته الرئيسية تطل على شارع قصر الشوق ، أما النافذة التى تصله بالحارة فسيرسل فى طلب نجار ليسدها فى الحال ، برغم هذا سيصغى الى دحروج ، وينفذ كل مايأمر به ، خاصة وأن صحته وصحة الأولاد تقدمت بعد نومهم مبكرين ، انه ينصح جيرانه نصيحة لوجه الله : الحذار ، الحذار من أى عمل خفى ضد دحروج ، لأن الرجل مكشوف عنه الحجاب ، والا •• كيف تأتى له معرفة نص عريضة عبد المقصود أفندى كاملا ؟

## ( ٣ )

فترة تلى آذان الفجر ، يتحلل على مهل سواد الليل ، تولد ملامح البيوت ، تتخلق ألوانها من جديد • ومن نبع خفى يطل بخار أبيض منظور عالق بالفراغ ، بلاط

الحارة يلمع تحت ضوء الفانوس الغازى الوحيد الذى يبدو يتيما شاحبا ، فى مواجهة ضوء نهارى وليد ، ومن نافذة متسعة ، فى الطابق الأول ، بالمنزل الرابع ، تطل الست روحية مع أولادها السبعة . صامتون يصغون الى مايقوله دحروج ، أيضا عائلة أم حسنى حتى الجدة العجوز ، منذ فترة وجيزة سكت ، بدت نافذة بيته مغلقة ، بنية اللون ، لم يرها أحد تفتح أبدا ، يعرفون أنه لن يكف تماما الا فى تمام السابعة ، لهذا ينتظرون الآن استئناف الحديث فى أى لحظة . فجأة انبثق صراخ رفيع ، حاد مسنون ، عويل متآن يبذله الجسم والنفس معا ، ممدود مقبض ، فيه خلاصة العجز الانسانى فى مواجهة أمر قاهر ، بدأ فرديا ثم أصبح جماعيا غليظا عبوسا ، نظر الساهرون من السكان الى منزل صالح أفندى ، فتحت نوافذه بصعوبة ، خرجت كلمة من بين العويل ..

ياخويا ...

استعاذ أهالى حارة الطبلاوى بالله ، كلهم بدون استثناء ، بدا خوف غامض على وجوه السيدات ، ينظرن الى نافذة دحروج المغلقة ، وكأنها باب للفرج أوصد ، أول أمس صاحت امرأة صالح أفندى فى تمام الثانية

صباحا مخاطبة دحروج ، تحدثه .. اذا أحاط بكل مايجرى بالحارة ، طالما أنه أوتى معرفة ماسيحدث ، وبعض الأهالى يقولون برفع الحجاب عنه ، فليقل لها اذن : هل سيشفى ابنها تيسير ؟ وحيدها المريض منذ عام ، الذى حارت به ، ولفت على جميع المستشفيات . يذكر أهالى الحارة الآن صمت دحروج ، ثم قوله المقتضب : «يالم تيسير ، لو طلعت شمس يوم الثلاثاء على ابنك ، ووجدته حيا سيعيش مائة سنة» ثم استأنف كلامه العادى .. الآن ، يبدو الثلاثاء جهما لايطاق ، وتذوب الأحشاء فى العويل القاسى ، والشمس على وشك الشروق .

( ٤ )

حتى مغيب اليوم التالى على ما أذاعه دحروج . لم تدر حسنية ماذا تفعل هل تذهب مع أولادها الأربعة الى ورشة الحاج بندق صانع التماثيل الخشبية ، تولول ، تجمع عليه الخلق ، تحكى كيف تزوج فتاة صغيرة ، ويبالغ فى تدليلها ، ولايعطى بيته مصروفا كافيا . لم تقصر فى حقه ، بداية حياتهما هنية طرية ، فى سنين زواجهما الأولى . رأت امرأة شعثاء جاحظة ، تدفع سربا من الأطفال ، وتحمل رضيعا ، تقف أمام دكان

موبيلياتى ، تطالبه بالمصروف ، تركها منذ أسابيع ، تذكر الدم المتدفق الى وجه المرآة ، عروق رقبتها النافرة الزرقاء • يومها قالت «بندق لن يفعل هذا بى أبدا» ، قبل عودته تطمئن الى نظافة البيت ، تمشط شعرها ، تتهيأ لاستقباله ، تروى بدنها بالأطايب ، حتى تبدو ريانة يستريح اليها من عناء يوم طويل ، الآن لاتجرؤ على الذهاب الى الورشة ، ربما يبهدلها ، ستجرى فى أروقة المحاكم ، تتوه فى طرقاتها • فى نظرات الكتبة الشبان والعجائز ، تبلى فى الانتظار ، لاتقدر على العودة الى البلدة ، شقيقها لن يحتملها مع أولادها ، لن تطيق نظرات الحريم ، يقلن فيما بينهن «لم تنفع فى مصر» لاتدرى ماتفعله الآن ، هل ترمى نفسها من الطابق الرابع ؟ تتخلص من ضيقها ، تنهى أوجاعها ومصائبها ، اذا لم تمت ربما قضت بقية عمرها عاجزة لاتصلح لعجين أو خبيز أو غسيل ، من يدرى ربما يرق قلبه اذ يراها مصابة ، يحن ويرجع الى أولاده • جاراتها نصحنها بالمضى الى دحروج ، تقف تحت نافذته ، ترفع صوتها راجية أن يدلها أى السكك تسلك ؟•

( ٥ )

•• أمام جامع سيدى مرزوق ، يقف حسن أفندى

متولى ، يقرأ الفاتحة ، فيما بعد لم يدر الحاج بيومى هل تم اللقاء مصادفة أم تعمد مقابلته ؟ عيناه حمراوان ، لم ينم ليل الحارة ، لم يتعود على النوم فى تمام الرابعة والنصف لايمكنه الآن الا الاضطجاع أثناء حديث دحروج ، قال حسن أفندى انه لافائدة من أى عمل تم حتى الآن ضد دحروج ، حتى عريضة عبد المقصود أفندى المشهور بصياغة العرائض وحبكها لم تأت بنتيجة ، بل ان أحد صورها المرسلة الى جهة رسمية أعيدت اليه لأن البريد لم يستدل على عنوان احدى الوزارات ، ثم ماهى حال عبد المقصود الآن ؟ بيته خرب بعد عمار ، هجرته الست وجيدة بعد أن أغرقها بالشك ، قال حسن أفندى ان مايقوم به دحروج لايوافق عليه ، وهو لم يقصر فى سبيل ايقافه عند حده ، وأهالى الطبلاوى يعرفون كلهم ، الكبير منهم والصغير أنه أول من ذهب الى القسم على رأس وفد من الحارة ، وقدم بلاغا وقع عليه ، وأملى بصوت عال رقم بطاقته العائلية ، وحتى الآن لم يحدث أى استدعاء لدحروج فلم يره أحد يخرج من بيته ، لم يظهر لدرجة أن بعض الشبان المتهورين الذين لايدرون آخر العواقب، قالوا فيما بينهم لاوجود لرجل اسمه دحروج ، والا فأين هو ؟ أما الصوت الذى يخاطب الأهالى ، فربما كان

بعض الأشقياء يريدون فرض أمور خطيرة على الحارة ، وما الصوت الا تسجيل يضعونه بين الحين والحين . وربما تتعرض الحارة لظاهرة خفية ، وأمور غير مرئية، وعندما ذهب أحدهم الى بيت دحروج ، تناقش مع مسعد أفندى ، أكد له وجود دحروج وامرأته غويشة .. وهذا أمر لاينكره الا أجنبى عن الحارة أو مجنون ، لأنه يعيش بينهم طوال عمره ، صحيح لم يسمع له حس ، ولكنه لم يحتجب الا بعد بدئه الحديث مع الأهالى ، وقال مسعد أفندى انه أدرى بوجوده لأنه يسكن تحته ، ويسمع صوت تحركه بالليل وبالنهار ، وهنا ارتفع صوت حسن أفندى ، هل تعلم ماذا جرى يوم أمس لشكرى ، أحد الشبان ، قال بيومى انه لايعرف بسبب تغيبه فى السفر ، قال حسن أفندى : فى المساء قال دحروج كل ماتناقشوا فيه ، وحذر شكرى مثير الشكوك ، ثم أنذره بعدم الذهاب الى امتحان الكلية ، ولو خالف فسيذيع الأدلة الدامغة بانتمائه الى احدى التنظيمات السرية التى تعمل ضد الحكومة . قال حسن أفندى أيضا ، انه رجل هادىء بطبعه لايحب الازعاج ولايطيقه، قال حسن أفندى انه يؤمن بعدم فائدة النطح فى الحجر ، وان النقش على الماء عبث ، والنفخ فى قربة مقطوعة مضيعة للوقت ، لهذا كله ، ولأسباب عديدة ، بعضها خفى ،

وبعضها معلن ، يرجو من الحاج بيومى سحب توقيعه ٠ قاطعه الحاج قائلا انه أرسل العريضة فعلا ، صحيح أن السكان لم يوقعوا فعلا كلهم ، لكنه أرسلها حتى يحرك المسئولين ، استفسر حسن أفندى عن الجهات التى أرسلت اليها العريضة ٠ وكتبها فى ورقة ، أبدى غما٠ قال انه سيرسل الى كل منها تلغرافا يعلن تراجعه ، قال ان الناس يحبون لبعضهم الأذى ٠ ولايصح للحاج ولا لغيره ارسال العريضة بدون أخذ آراء من وقعوا عليها ، احتد الحاج بيومى قائلا : مجرد التوقيع يعنى الموافقة على ارسالها ، زعق حسن أفندى ، أبدا ، أبدا ، لايوجد ولن يخلق من يعلمه الأصول، هو موظف الحكومة الذى قضى عمره بادارة مكافحة الدودة ، قسم الفقس ، علا صوت الحاج بيومى موضحا ، انه هو أيضا موظف حكومى ، أليس السائق بالسكة الحديدية موظفا رسميا يقبض مرتبا شهريا ، ويتقاضى علاوات أكثر من التى يتقاضاها موظف فى الدرجة السابعة ٠ مط حسن أفندى شفتيه احتقارا ٠ توقف بعض المارة ، تجمعوا حولهما ٠

★★★

## مشاهدات الرقيب صالح عبده ، بالأمن الخاص فى حارة الطبلاوى عندما جاء يستطلع الأحوال !

«ياحاج بيومى .. ياحاج بيومى ..»

كان البعض يجيب بتصفيق مماثل ، الضوء عال، والنهار شاحب مرتحل . هدوء ثقيل مراق بسخاء . منذ دخوله الحارة لم ير طفلا ، أو امرأة ، عادة يتصايح الصبية حوله ، يمشون خلفه يتوقعون منه حركة عنيفة مفاجئة . فيحتفظون بمسافة معينة ، ربما اتقن الأهالى هنا تربية أولادهم ، حرموا عليهم اللعب فى الحارة ، توقف فى الطابق الأول أمام باب جهم المنظر ، خبط مرات ، لم يجب أحد ، دق الباب بعنف ، حركة صغيرة مترددة ، صوت شبشب ، عاد يطرق الباب ، يأتى همس ، اثنان يتبادلان الحديث ، لم يدر أهما رجلان أم امرأتان أم رجل وامرأة ؟ صفق مرتين ، علا صوت :

ـ ماهذا الازعاج ؟ ألا نستطيع النوم فى راحة ؟

ـ الحاج بيومى موجود ؟

ـ فوق .. فوق ياعالم . ارحمونا ، ودعونا ننام .

طلبع الحاج ملتفا فى عباءة قديمة من وبر الجمل ورثها عن والده ، عيناه ضيقتـان ، فيمها آثار نوم . الشرطي صـالح لاتزعجه مثل هـذه المقابلات . أمثال الحاج يتباهون قائلين : طول عمرنا لم نمض الى قسم بوليس ، ولم نقف أمام نيابة .

«أنت قدمت»

لم يكمل الشرطى صالح حديثه ، قاطعه الحاج ، صوته رفيع حاد كصفير قاطرة متحشرج .

ـ أنا لم أقدم ولم أشك من ..

ـ ولكن ...

ـ تنـازلت ياأخـى . تنـازلت عن الشـكوى والعريضة . المصـارين تتصـارع فى البطن ، مابالك ونحن جيران ؟

ينظر الشرطى صالح دهشا ، قال الحاج انه تنازل عن كل شىء ، وأنه على استعداد للذهاب الى السجن بسبب ازعاج السلطات ، لكن آن يسأل سؤالا واحـدا حول جاره العزيز : لا . ثم يجب على الشرطة اختيار الوقت المناسب للحضور الى النـاس ، آما اقـلاقهم فى أحلى ساعات النوم ...

نزل الشرطى صالح الى الحارة . نوافذ البيوت

مغلقة ، تلفت حوله حائرا • دخل بيت دحروج ، فى منتصف الليل قبل بدء الحديث اليومى ، قبل ان دحروج خرج وتحدث للشرطى فعلا ، وان ضحكاته سمعت واضحة لمن لم يدركه النوم فى المواعيد المحددة ، أيضا استفسر دحروج عن بعض الأشياء • أبدى اهتمامه تجاه أسماء معينة ، أبدى الشرطى دهشة • قال دحروج انه يعرف هؤلاء كلهم ، وكبيرهم رهن اشارته ، ثم أوصاه باتمام اجراءاته على أتم وجه ، فى هذه اللحظة دخل الحارة المعلم يونس الفرآن • رآه الشرطى صالح يرفع يده بالتحية اذ يمر تحت بيت دحروج ، النوافذ مغلقة لكنهم يثقون أنه يراهم ، يعرف من ألقى السلام ومن لم يلقه ، يعرف من جرؤ على تناول الطعام بمفرده خارج الحارة • أو فى بيته ، الحاج حمزة يفتح النافذة يوميا قبل نومه ، ويزعق بالسلام حتى بعد تعرض دحروج بالكلام لابنته الصغرى ، وذكر بعض تفاصيل علاقاتها بمدرس الكيمياء • أم تيسير منذ رحيل ابنها ، بمجرد أن يبدأ دحروج حديثه تنزل مهرولة بقميص النوم ، ترفع ذراعها زاعقة تحت النافذة : «الله أكبر •• الله أكبر» عليه وعلى شبابه ، دحروج بركة • أى مخلوق يجرؤ على شكواه ستناله مصائب ومحن ، وتغرقه رزايا • حتى الحاج أحمد تاجر الورق • المريض

بأعصابه ، قال لكل من زاره آخيرا : ان صوت دحروج الليلى لايزعجه بل ينبئه آن شفاءه سيتم قريبا ، وآنه قبل ماكلفه به دحروج من قيامه بدور الوسيط بين المتخاصمين فى الحارة . بعد فترة آيقن رأفة دحروج به ومراعاته لظروف مرضه ، لم يعد يتخاصم آحد ، ومن لديه وجيعة يمضى بها طارحا اياها آمام دحروج ، أسند اليه آخف المهام ، وفى الواحدة صباحا يقف بالشرفة ، ويضحك ، ويهز رآسه موافقا ، يصيح مستحسنا مايقال ، عند باب الحارة توقف الشرطى صالح عبده لم ير آحد ، لاينوى توجيه آى سؤال ، رآى طفلا صغيرا يتجه الى مدخل الحارة . لمعت عيناه لحظة واتجه الى الطفل . انحنى حتى قارب رآسه ..

ـ اسمك ياشاطر ؟

ـ سعد .

ـ انت من هنا ؟ من حارة الطبلاوى ؟

أومأ الطفل ، بدا قلقا ، الأطفال لايكذبون ، كواجب أخير سيحاول أن يعرف منه .

ـ يعنى ألم تسمع ميكروفونات أبدا بعد ..

هز الطفل رآسه . ابتسامة مرتعشة قلقة .

ـ خيالات ياشاويش .. أبدا .. أبدا ..

ـ هل تنام يابنى ..

رفع الصغير عينين شاحبتين ، بدآ متعجبا : آى سؤال هذا ؟ ما الذى يقوله هذا الشاويش ؟ انفلت يجرى مسرعا .

★★★

« تأشيرة على المذكرة الايضاحية رقم ١٠٦ م ، وعلى تقرير الشرطى صالح عبده ، وعلى عرائض مقدمة من بعض أهالى حارة الطبلاوى ، وشكاوى من مجهولين . ونصوص مكالمات تليفونية ، لمواطنين رفضوا ذكر أسمائهم » .

« يحفظ ... »

# منتصف ليل الغربة

## اشارة تليفونية

من مديرية الصناعة الى مديرية الصحة

بناء على اشارتكم لنا بتاريخ اليوم ، بخصوص سرير خال بالاستراحة طرفكم .

نرجو حجز مكان باسم السيد/ يوسف عبد الرحمن الموظف المستجد طرفنا .

مبلغ الاشارة

امضـــاء

تتراجع البيوت على مهل : الدكاكين الصغيرة ، والاعلانات ، وألواح الزجاج ، يصيح رجل مناديا على تاكسى بالنفر ، تنساب أغنية من بيت قريب ، يذيعونها دائما فى هذا الوقت ، وحدة الظهيرة ، تزيد من الحركة ، يعود الناس من أعمالهم فى مدينته البعيدة الآن ، كان اذ يرى آباه يصيح : هيه .. بابا جه .. بابا جه ، لاتذكره الأغنية بأيام راحت ، بل تثير فى نفسه تراب الحزن الدفين ، أيام حلوة مزهرة مشرقة ، جرى فوق رمال الشاطىء ، احتوى البحر بعينيه ، وسامية بين ذراعيه ، أطعمته بيدها لحم السمك المشوى الأبيض ، مسحت عن شفتيه قطرات ماء البحر مالحة الطعم ، الآن يعض شفته ، وقع عجلات حنطور رتيب ، الهواء حوله بارد ، قالوا له ان برد المدينة شديد ، خاصة اذا مانزل الليل ، قالت أمه : اذا شعرت ببرد ضع جريدة قديمة فوق صدرك ، ربما تقف الآن فى الشرفة ، تعرف أن يوسف لن يظهر عند منحنى الشارع ، أبوه لم يصل ، ربما جاءت أخته الآن ، كان يروح ويجىء بين الغرف ، يقرص أخته ، يسألها : هل تعرض لها أحد ؟ يأكل بسرعة ، يمد يده ، يداعب ذقن أمه ، تحكى له عما رأته عندما نزلت تشترى السمك ، دارت .. بحثت حتى وجدت السمك الذى يحبه ، الأسواق مافيها الا

الشبار الصغير ، عند رجوعها قابلت السيدة آمينة ، كلمتها عن محمد الذى جاء وقرأ فاتحة ابنتها ، سعاد لم تتعلم ، ولها ثلاث أخوات كلهن بنات ، أصولها ترضى بأول ابن حلال يجىء للبنت ، يصغى يوسف ، فجأة ، يسأل أمه : ألم تحضر بنت حلوة كالقمر ، وتسأل عنه؟ فترفع آمه يديها وتطلب من الله تعالى أن يعجل بهذا اليوم الذى ترى فيه عروس ابنها ، تجاوزت العربة آخر بيوت البلدة الخلاء يتسع ، النخيل يتشابك ، الحنطور يمضى متمهلا .

★★★

**الأربعاء ٢٢ ديسمبر**

هل خاف الأطباء على أنفسهم من العدوى فآثروا العزلة ، لكى أقطع المسافة حتى المدينة لابد أن أمشى نصف ساعة فى طريق مترب ، خال تماما من البيوت والعشش ، تماما ماتوقعته لحظة رؤيتى المبنى ، النوافذ مستطيلة وكبيرة جدا ، مغلقة ، وكأنها لاتفتح أبدا ، أما الشرفة فقد أحاطت الطابق الثانى كله ، محمولة على قوائم خشبية ترتكز على الأرض . لحظتها تذكرت بيوت مدينتى البعيدة . ذات الواجهات الخشبية ، آه من رائحة الغسيل المنشور فى الهواء وملح البحر . لو

أغمض عينى ، وأفتحهما ، وأجد الطرق والمتاجر النظيفة والنساء الجميلات ، والبحر . لم يمر يوم الا ورأيته ، فى الليل أرهبه ، أخاف لو مشيت فأجد نفسى فوق مياهه . أمشى بعيدا عن السور ، ربما امتدت يد غليظة الأصابع ، وشدتنى الى أعماقه ، ابتعد عن وشيش الأمواج ، العمق المحسوس غير المرئى ، بدا المبنى خربا عند عبورى حديقة الاستراحة الجرباء . تيقنت أن هناك من يرقبنى ، اقشعر ظهرى ، طلعت السلم الذى يدور حول المبنى ، الدرجات الخشبية مغطاة بأوراق شجر جافة ، الصمت كالجبل كأن العالم خرب ، مدينتى البكر واسعة العينين لم توجد أبدا ، مع أننى فارقتها منذ ساعات .

فجأة ظهر عبد المقصود ، كنت متعبا ، عيناى تكادان أن تنغلقا حزنا وتعبا . انه طويل الجسم والعنق ، جامد الوجه ، ينظر دائما فى خط مستقيم . لم يرحب عبد المقصود بى ، نفس الجمود الذى قابلنى به الموظفون . لم أسمع من يقول : حمد الله على السلامة . أنا أيضا بادلتهم نظرات الكره ، خاصة الشاب المتأنق ، والعجوز صاحب الصوت الملىء بالرغاوى . تبعت عم عبد المقصود وصداع أليم فى

قلبى ، لم أصدق أننى بعيد عن ساميه ، عن البحر ، وقد أسندت الحقيبة أمامي . وأطرقت مدة برأسى ، مغمض عينى .

«يوسف»

★★★

١ ـ الدكتور جلال محمود مرسى
من ١٢ ـ ٧ ـ ٦٨ حتى ١٣ ـ ٧ ـ ٦٨

٢ ـ محمد فوزى عبد السلام
من ٢٠ ـ ٨ ـ ٦٨ حتى ٢١ ـ ٨ ـ ٦٨

٣ ـ يوسف عبد الرحمن
من ١١ ـ ١٢ ـ ٦٨ حتى .....

★★★

ـ يعنى مفيش حد فى الاستراحة غيرى ياعم عبد المقصود ..

ـ أيوه ..

ـ لو نزلت البلد دلوقتى ورجعت متأخر مين يفتح لى ؟

ـ آنا دايما تلاقينى تحت . مابنزلش البلد غير قليل خالص .

ـ لكن السكة وحشة خالص ياعم عبد المقصود ..

ـ شوف يايوسف أفندى . الحته دى طول عمر خلا ماحد هوب ناحيتها . والطريق خطر . وأولاد الحرام كتير .

ـ يعنى الرجوع بالليل مش مأمون .

ـ ده اذا جالك قلب وقدرت يايوسف أفندى .

★★★

**الأربعاء ٢٢ ديسمبر :**

لا أعرف ما الذى يجرى لى لو لم أحضر كراستى والقلم . فى مدينتى انقطع عن الكتابة بالشهر . واليوم ألجأ اليها مرتين . فى العصر كسرت عادتى ولم أنم ، البرد يشتد ، لاأستطيع القراءة الا تحت البطانية ، ثم .. لو نزلت البلدة ، مع من أقضى ليلتى ؟ المقاهى قليلة وصغيرة . فى بلدتى لو جلست على مقهى ، فى حى غير شارعى . لنظروا الى بريبة فكيف هنا والناس يعرفون بعضهم ، قال أبى ان أهالى البلدة كالحريم ينتهون من عمالهم ، ويدخلون بيوتهم . فلا يخرجون منها الا فى صباح اليوم التالى . قال أبى الله يبعدنى عن أولاد الحرام . قلت وعيناى تدمعان

والجرس يرن رنتـه الأولى : سـأقضى وقتى وأذاكر انجليزى ، وأقرا الكتب ، ونصحنى بأننى لو استطعت أن أجد شابا فى مثل سنى ، غريبا ، ونستأجر غرفة أو شقة • وكنت أعلم لماذا يقول أبى هذا ، حتى لايضحك على أحـد ويوقعنى فى بنت قـد تبعدنى عنه ، وتقطع ماقـد أرسـله الى العائلة ، وعلى العموم نسـاء البلدة كلهن لسن جميـلات كفتيـات مدينتى ، آه من الزحام والشـمس الحـلوة صبـاح الجمعة عنـد محطة الترام الرئيسـية والهواء يهب مشـبعا بزرقة البحر ، عنـد المحطة رأيت سـامية لأول مرة ، بلوزة بيضاء ، جونلة برتقالية ، جورب أسود ، حذاء أبيض كبير ، عيناها فى لون ، أى لون •• عسـل النحل ، رأيتها كمطر خفيف ينزل على مهل فى يوم حار ، أوراق زهر صغيرة تكسو الرصيف فى أيام مارس الأخيرة • نجم شـاحب بعيد قصى له عينـان واسـعتان ، وأنف دقيق ، وشـفتان كالفراولة ، قلت لن أجد مثلها • لو انى خلقت بنتـا لتمنيت أن أكون مثلها • لفترة حاولت أن أقيم علاقات مع فتيات يسكن فى شارعنا ، لكننى ترددت ، وارتعشت قبل حديثى اليهن ، ونصحنى زملائى بالجرأة ، وهاهى • لو ضاعت ، هذا الشيء الخفى الذى لا أراه ولا أدركه ، لقضيت عمرى بعيدا عن جنس النساء ، حاذيتها وقلت

لهـا ان قلبى قد ارتجف عنـدما رآها ، واننى أشـعر بصداقتها لى من زمن • توقفت ، نظرت الى وابتسامة على وجههـا حيرتنى ، قالت آه ومـاذا بعـد ، اصرار عجيب انتابنى • سألتها عن اسمها ، فى أى سـنة هى قالت أولى ثانوى • ثم قالت اننى ظريف ، وطيـب • وفجأة كفت وطالبتى بالابتعاد ، قلت لها اسمى يوسف ، واننى حاصـل على دبلوم تجارة متوسـط وسـاعمل قريبـا ، واننى أنوى دخول امتحان الثـانوية العامة فلابد من الالتحاق بالجـامعة ، وقلت يمكننـا مذاكرة الانجليزى سويا ، ضحكت وكررت اننى طيب جـدا ، وسألتها أهذا مدح أم ذم ، فطلبت منى برقة ألا اتقدم معها أكثر من ذلك ، بيت خالتهـا يقترب ، قلت اننى انتظرها وأرجع معها حتى لو قضيت الليـل هنـاك ، ابتسمت وقالت لاداعى • تابعتها حتى اختفت ، وكررت فى ذهنى عنوان المدرسـة ، فجأة صحت بأعلى صوتى انطلقت أجرى ، أجرع هـواء البـحر ، ألتهم الطريق الليـل • وددت لو أوقف كل من يقـابلنى لأقـول له ماجرى ، ضـحكت وداعبت أمى كثـيرا حتى ظنت أنى شـارب حاجه ، وقلت لها انك أعظم أم فى العـالم • عنـدما قابلتها ليلة سـفرى ، دمعت عينيها ، قلت لها ربما غبت عنك شـهورا ، قالت أسـافر معك ضغطت

يدها ، الكازينو خال الا منا المصابيح الملونة تضيء فى انكسار ، وبقايا الأمطار فى منخفض من أرض الحديقة وغناء من بعيد ، قبلتها ، تخللت أصابعى شعرها الناعم كالليل ، أقسمت لى بتربة أمها أنها سترسل كل ثلاثة أيام خطاب ، ستقول كل شيء جرى لها ، وللمدينة ، وفى المدرسة ، اذا نزل المطر ، اذا هاج البحر ، لو دخلت السينما مع أبيها وزوجته ، فستحكى لى بالضبط مارأته من أفلام ، وعندما خرجنا كان للهواء طعم القرنفل ، المصابيح عالية ، ضوؤها مخنوق كصوتها لحظة الوداع ، لو أنها معى لانقلب كل شيء ، عدت أصغى الى أزيز الصمت ، تطلعت الى السقف المرتفع جدا ، عندما سألت عبد المقصود عن هذه المدفأة الرخامية ، قال ان الانجليز كانوا يتدفأون بنارها ، سألته هل حضر أيام الانجليز هنا ، قال انهم هم الذين بنوا الاستراحة لمهندس الرى ، وكنت واحدا من الذين وضعوا حجارة المبنى وأخشابه فوق أكتافهم ، ثم عينت فيه ، صمت فجأة ، وبدا غير راغب فى الكلام ، أسند الدورق وخرج ، لاأعرف مايفعله فى هذه اللحظة ، كأنه لم ينم ، انما يطل على من ثقب الباب ، ارتعش دمى ، نفضت مايتدافع الى ذهنى ،

تأملت الكتب محاولا اختيار رواية أقتل بها مابقى من وقت ..

«يوسف»

★★★

تمسك يده بحافة النافذة ، يمرق شريط الضوء اللامع يكشف العربات التى بدت مستطيلا واحدا ، مرور العجل فوق فواصل القضبان ، قطار الثانية عشرة قادم من الشلال الى القاهرة ، مفتخر لايقف أبدا، يوسف يتابع الرجال النائمين على المقاعد الزرقاء فى العربات ، آخرون يشربون الشاى ، يأكلون الجاتوه فى عربة الأكل ، يبدو عليهم ملل ، الرحلة طويلة ، لو يركبه يوسف ، بعد ساعات يقف فى القاهرة ، ثم قطار آخر ينقله الى البحر ، لكم يبدو بعيدا وبطيئا هذا الوقت الذى سيمضى عليه هنا ، حتى يحصل على اجازة ويسافر . يسيل الضوء ناعما فى الخارج . أضواء المدينة البعيدة خافتة تزيدها بعدا . فجأة ينتبه الى وجود رجال فوق القنطرة الحجرية ، هل عبد المقصود بينهم ؟ لايرى الملامح ، أياديهم طويلة تلمس ماء الترعة ، لايجرؤ على اغماض عينيه ، لو يأتى بأقل حركة ربما تنبهوا اليه ، تنبعث من بعيد أصوات

مجهولة لم يميز منها الا مايشبه اطلاق النار • هل له صلة بعمل الرجال • لايعرف من آى جهة يجيئون ؟ يظهرون فجأة ، ربما يخرجون من الاستراحة ، فجأة • يضيع كل مايراه • يتبخر الضوء الناعم ، تضيع معالم الحجرة ، تحته فراغ وفوقه ، هل أصيب بالعمى المفاجىء ؟ هل يحيط به غرباء أقزام ؟ عمالقة ؟ لن يطلع عليهم النهار • هنالك ، لن يعيش اللحظة التى تلى هذه ، لن يدرى أحد ، لن يحميه عبد المقصود ، يتحرك مشلولا ناحية السرير ، تتقلص أصابعه ممسكة بالبطانية ، ينتزعها بعنف ، ويلفها حول جسمه • يصطدم اصبع قدمه بالمقعد المدبب الحواف ، لو قطعوا لسانه اللحظة لما شعر بالألم ، يسند ظهره الى الباب • وحيد تماما • نواة ملقاة فى فراغ حتى من النجوم ، والأرض ، وذرات الرمل ، وسامية ، وحراشيف النخيل •

★★★

ـ صباح النور • لا والله ماسمعتش • أصل النور بيطفى بعد الساعة اتناشر • وابور البلد بيقف •

★★★

## الخميس ٢٣ ـ ١٢ :

طلبنى المدير ، سألنى عن مجموعى فى الدبلوم ، وسرعتى فى الآلة الكاتبة وأعطانى ثلاثة خطابات ، طلب منى أن أنسخها ، شعره يلمع وأسنانه بيضاء يتكلم برقة ، يتناول بين لحظة وأخرى قلمه الحبر الطويل المغموس فى محبرة نحاسية ، ليؤشر به كلمة واحدة فقط ، كدت أقول له ان الاستراحة مزعجة ، وانني لن أرجع الليلة اليها ، غير أنى ترددت ، ماهى مبرراتى ؟ خرجت من عنده ، وفوجئت بزملائى ينتظرون خروجى ، سألونى عما قاله سيادته ؟ قلت : لا شيء . سكتوا ، نظروا الى بعداء . جاء رئيسى الشاب ، أعطانى عشر استمارات صرف لأراجعها . نظر الى الدوسيهات الكثيرة أمامى . قال لابأس اذا كان العمل كثيرا عليك ، لكن هذا لابد منه حتى تتمرن . قلت أبدا . فجأة سألنى عما قال المدير ، قلت : لاشيء . وفعلا لم أر فى كلامه مايستحق أن أكرره ، غير أنه اعتدل واقفا ، نظر الى بعداء لم يخفه . كنت مجهدا ، وعيناى مليئتان بالصابون الحارق ، وعندى ميل الى القيء . تخز قلبى صورة سامية . بعد فترة جاء ، وأشار الى حقيبتى الصغيرة ، قلت له عما بها ، كراستى ، ورواية لم

أتمها ، وثلاثة مظاريف خطابات ، ومحفظة نقودى ، لأنى لاأحمل نقـودى فى جيبى . قال على مسـمع من الآخرين ، انه لا مجال لقـراءة الروايات هنـا ، وان العمل جاد ، وانه هـو نفسـه لايحب أن يحضر أحـد موظفيه روايات أثناء تأدية العمل الرسـمى . عنـد الساعة الثانية وقعت أمام اسمى ، وفجأة ، جاء الساعى العجوز ، وطلب أن أكلم المدير ، تلفت حولى غير أنى لم أهتم بنظـراتهم ، ودخلت الى سـيادته ، ابتسم ، ولاحظت بدهشة أنه قصير القامة ، بعكس مايبدو أثناء جلوسه ، قال : لعل العمل لايكون ثقيـلا على نفسى . ارتحت . فارقتنى الرغبـة فى النوم . كأنهـا لحظـة رؤيتى سامية قادمة من ناحية البحر ، قلت : أبدا ان العمل لايرهقنى ، قلت فى نفسى : بعد دقيقة أكلمه عن الاستراحة ، كدت أقول له : أشعر بأننى أتكلم أول مرة مع انسان منذ وصـولى ، قال : هـل تعرف أحـد الموظفين هنا ؟ قلت : أبدا . سكت لحظة ، وقال : أنا هنا مثلك ، وربما أنت أعزب . أنا عندى أسرة مقيمة هنا . وللأسف هؤلاء الموظفون لايكفونعن الحديث عنى . سكت ثم تابع : طبعا هذا شىء مزعج . ولكن لو عرف مايقولونه بالضبط سيصبح الأمر غير ذى أهمية ، كل ماعلى أن أسمع مايقولونه فقط ، وأنقله بالحرف الواحد

لا أزيد ولا أنقص . وبهذه المناسبة - هل تكلموا فى موضوع يخصنى اليوم - قلت : لا أذكر . لوح بيده ، وبدا وجهه غير مهتم ، وطلب منى أن أنتبه من الآن ، خرجت والرغبة فى النوم تعاودنى ، ذهبت الى المحطة - جلست فوق رصيف المسافرين ، ثلاث بنات تلميذات ، وقفن بعيدا عنى - ينتظرن أوتوبيس الديزل الصغير الذى يصل المدينة بالقرى الصغيرة ، القريبة . لم أنظر اليهن ، أين هن من سامية ؟ بل أين البحر . الطرق اللامعة المتعطشة الى ماء المطر ، الأشرعة البعيدة كجناحى طائر محدودب ، أين البهجة فى وعائى عسل النحل المصفى ؟ تضحك ، تتقدمنى الى الترام . ننزل آخر الخط ، نمشى بجوار البحر الذى يتنفس بقوة ، فجأة نجرى ، نجلس فى نهاية اللسان الحجرى ، أسند رأسى الى فخذيها ، أحيطها بذراعى ، ربما رآنا أحد ، لكننى أقطف ثمار الفراولة ، والكمثرى ، وأشرب عصير المشمش ، اذ تهدأ تأوهاتها ، نتحدث عن آمال نرجو أن تتحقق ، ليس من المعقول أن نقضى حياتنا فى هذه المدينة ، ياسامية ، بعد زواجنا سنرحل الى السودان ، الى أريتريا ، الى بيروت ، الى أوروبا ، نطوف المدن البعيدة معا ، نجلس على المقاهى تحت سفوح الجبال ، نخرج قلما وورقة ، نكتب تكاليف الرحلة الأولى - نشير

بعض الاعتراضات ، غير أننا نتغلب عليها ، ها .. ربما تفكر سامية فيما قلناه الآن ؟ هل يعرف هؤلاء الموظفون أى مشاريع صغيرة رسمناها معا ؟ هل يدرى المدير بأحلامنا ؟ كأن دنياهم تتوقف على معرفة ماقالوه أو ماقاله ؟ يثور بى الخاطر أن أركب أول قطار الى مدينتى ، الى سامية ، وأسند رأسى على صدرها وأبكى، أبكى بلا دموع . قمت حاملا حقيبتى الصغيرة ، الرصيف خلا من الركاب ، والفتيات رحلن الى قراهن البعيدة . وسامية خرجت من المدرسة الآن .

«يوسف»

★★★

ـ أنت فاكر كلمتك فى ايه ياعم عبد المقصود ، ايه رأيك تبات معايا . اديك شلن كل ليلة . السريرين واحد ليه . وواحد ليك . كل ليلة شلن . آه والنبى . أحسن الأوده واسعة والبيت فاضى ، والحتة كده شكلها يخوف .

★★★

لو معه راديو لسمع الأصوات المنبعثة من العالم ، هنا بيروت . هنا لندن ، اذاعة الجمهورية العراقية من بغداد . محطة الاذاعة العربية من موسكو . عدن ،

الجزائر ، تختلط الأصوات ، تضيع النداءات ، حنين حاد يتحرك فى دمه ، أو يسمع أغنية من قرب ، أصوات الرجال ستبدأ بعد قليل فوق القنطرة ، منذ ساعتين دخل عبد المقصود ، تلفت حوله ، عيناه فحصتا كل مافى الحجرة ، كأنه يدخلها أول مرة ، ثيابة المعلقة فوق المشجب ، الحقيبة التى مازالت مفتوحة ، الحذاء ، الجورب ، الفوطة الملونة بخطوط سوداء ، المشط ، سأله عما يفعله بالكتب ، سكت .. ثم سأله عن سنه ، فقال يوسف : تسعة عشر عاما ، قال انه صغير ، تمدد ملتحفا بالبطانية ، أنهى الحديث فجأة ، لايدرى يوسف ما الذى يفعله الآن ، يطفىء النور أم يبقيه ، عبد المقصود لم يطلب اطفاءه ، لايعرف هل رجعوا الى القنطرة ، لكن ربما يطردهم عبد المقصود ، يظن أن يوسف يرصد حركاتهم فيناله ضرر ، قرض يوسف شفتيه ، برغم أن مظهره ينم عن نوم عميق ، غير ان احساسا خفيا يقول ليوسف : عبد المقصود لم ينم ، لو نظر الى عينيه من الناحية الأخرى ، لرآهما مفتوحتين ، خفت الضوء ، بعد قليل ينقطع ، منذ لحظات خرجت حفلات السينما الأخيرة ، أربع مرات دخلها مع سامية ، تقول لزوجة أبيها انها ستذاكر مع صاحبتها ، تاهت

نظراته على السقف ، وهو لايعرف ما الذى تفعله سامية الآن .

**السبت ١٢/٢٥ :**

أرعبنى الليلة عبد المقصود ، ظل ساعة كاملة ينظر الى ، متجمدا كالحجر . قطع ماكنت أود أن أسأله عنه . حياته ، نزلاء الاستراحة ، وحدته . وفى الهواء تصاعدت رائحة عرق لم أشمها فيه من قبل ، بالرغم أنه تمدد من ساعة موليا وجهه الى الحائط . فهو يرقبنى الآن . أذناه تسمعان حركاتى ، تحصيان دقات قلبى ، أنا تعب ، خطابات سامية لم تصلنى بعد . كل يوم يوم أسأل مدير البوستة قبلى البلدة ، أنا حزين ، وأكاد أبكى ، لاأعرف لماذا يبدو عبدالمقصود غامضا ، ولا أعرف لماذا يبدو عبد المقصود هكذا .

«يوسف»

★★★

الساعة الثانية صباحا تقريبا . أقصى عمق لظلام الليل ، يوسف لم ينم ، حتى قطار الثانية عشرة لم يمر ، يصر السرير فجأة ، يكف الهواء عن دخول رئتيه ، حفيف جلباب عبد المقصود لم يعد متمددا فوق السرير .

ما الذى ينويه ؟ هل صمته ، اخفاء حركاته ، يخفى أمرا ، ينزل يشارك الرجال فوق القنطرة ، لايتجه الى الباب ، يقترب منه ، لحظات الكابوس ، صراخه المكتوم من الأنف ، وشلل الجسم ، وصياح أبيه ، اصحى .. اصحى ـ ولو ، فمن يهرع اليه هنا .. من يهز جسمه حتى يفيق ؟ من .. من ، يصر السرير ، ليس كابوسا ، عرق عبد المقصود يملأ أنفه ، عبد المقصود يلامس جسمه ، يده الغليظة الخشنة تسد فمه ، أنفاسه ساخنة لزجة تقشعر ماوراء أذنيه ثقل جسمه ، اليد الأخرى تمتد الى بنطلون بيجامته ، الحجرة تغرق فى زيت لزج ، لو يصرخ .. لكن من يجيب لو يزعق ؟

★★★

« كنت تقول لى ، انك لو نظرت الى وجهى لشعرت بحزن لايحز فى قلبك ، انما يشحن نفسك بما لاتدريه أنت ، وسألتك كيف تحزن اذ تنظر فى وجهى ؟ قلت انك حائر ، وهنا فى الغروب كل ليلة أذهب الى صاحبتى سعاد أذاكر معها ، وأرى وجهك أكثر من مرة فى الطريق .. عند منحنيات الشوارع ، أمام محلات عصير الفواكه ، أتذكر مشروعاتنا للسفر ، وأتخيل نفسى أننى سافرت وحدى ، الى بلدة صغيرة عند حدود

العالم ، شوارعها مبلطة ، وكنيستها قديمة ، أجلس فى مطعم له شرفة خشبية ، وفجأة أراك تعبر الطريق ، ولاأكون متوقعة رؤيتك ، فاقفز من مكانى ، أناديك ، تدهش أنت اذ من يناديك بالعربية فى هذا المكان ؟ تفتح ذراعيك ، تدور فى الهواء . أسألك ما الذى جاء بك . وتسألنى ما الذى جاء بى ؟ ولاتسعنا الفرحة فنتمنى لو تحولنا الى طائرين صغيرين ، وطرنا الى أعلى الجبال المغطاة بالثلوج .. آه .. هل تذكر عندما كنت أتقدمك فى نزول سلم السينما الطويل الحديدى المفروش بسجاد أحمر ، كنت تقول لى .. أنت الآن تنزلين سلم البوينج ، ونخرج الى الشارع ، تقول اننا اجتزنا الجمارك ، فلاشىء معنا نحاسب عليه ، ثم تشرح ثم تشرح كل ماتراه ..

يوسف

فى اليوم الواحد أفكر فيك يومين . هل تذكر الجمبرى ؟ هذا الطريق الطويل المفروش بالظلال . ساعات يخيل الى أن المدينة خراب بدونك ، لم أعرف قسوة الفراق الا لحظة موت أمى ، ورحيلك أنت ، سأكتب لك كل ثلاثة أيام . ربما كل يومين ، وربما كل يوم . واذا ماكتبت لى ، فلاتكتب أقل من أربع صفحات

فولسكاب ، لابد أن أعرف كل كبيرة وصغيرة عنك . أكلك ، نومك ، شربك ، أصحابك ، وقتك ، كل شيء حتى أهدأ . حتى أستريح ، وأخبرني متى ستحضر .

المخلصة لك

سامية

★★★

**الأحد ١٢/٢٦ :**

أكلت في المطعم الوجيد ، سألت الرجل عن مسكن خال حتى لو كان جحرا . فقال ان مأمور المركز كان أولى ، وانه لايستطيع احضار عائلته لأنه لايجد مسكنا، ونصحني ألا أتعب نفسي ،فأهالي البلد لايقبلون غرابا . في العصر خنقتني الغيوم ، همت على وجهي لاأجرؤ على اخراج خطاب سامية ، منذ جئت أنتظره . عندما قرأت خطها الرقيق خجلت من سطورها . وبكيت . وحدقت على لون الضوء المتسلل في الفراغ ، والنوافذ الكبيرة المغلقة . والرجال الذين يحملون أكياس الفاكهة الى عيالهم . أغرقني النهر حزنا كالنحاس الأزرق ، واذ رأيت بنات المدرسة الثانوية ، وثيابهن الرمادية . تذكرت سامية ، وارتعشت ، كأنها تنظر الى من مكان لا أراه . بعيدة عني ، لكنها تلمحني من مكان خفي ،

وجهها فى الفراغ . أينما رحت ينظر الى برثاء ، كدت أرمى نفسى فى النهر . كدت أضرب المدير القصير عندما طلب منى فى حدة أن أنقل اليه مايقال عنه حرفيا ، وأن أعتبر هذا أمرا ، بدا لى أنه يعرف تماما ماجرى ، وأنه على صلة خفية بعبد المقصود . أما الموظفون فنظروا الى بسخرية من وراء الدوسيهات ، طلب لى أحدهم شايا ، ولم أدر سبب الود المفاجىء ، كدت أرفضه ، وفى كل رشفة شعرت بنظراته . هاأنا أسقيك شايا . أنا لست أقل شأنا من عبد المقصود طبعا ، آخر النهار سألت عم محمد عن مكان خال ، فقال : هذا مستحيل ، حتى الباعة ، خادم المقهى ، هزوا رؤوسهم ، كلهم يعرفون ، حتى الرجال المحملقون الى من فوق مقاعد المقاهى ؟ المتجهون الى المحطة ليركبوا القطار . كلهم يعرفون ، مهدوا لما جرى ، لو أعود الآن الى مدينتى ، يعرفون فورا . قلت فلأنم الليل على رصيف المحطة ، أتأمل القطارات التى تجىء ، ولاتقف . . شربت شايا ، امتدت مخالب طيور صغيرة تنهش كبدى ، نزول السواد يمنعنى من العودة الى الاستراحة ، مقدمات المغيب كالطاعون ، تطردنى البيوت الى الخلاء المؤدى الى غابة النخيل .

يوسف

★★★

« •• أنا عـارف كويس انك دورت على لوكاندة طول اليوم • وكمان فكرت انك تسافر ، ولما يئست فكرت انك تنام على رصيف المحطة ، لكن البوليس لازم يمسكك • أنا عارف انك مش حتلاقى • حتى لو لقيت، فمش ممكن تسيب الاستراحة برضه • انت هنـا • عندى • أنا مش مخليك تحتاج حاجة أبدا • بس تقول لى على كل اللى انت بتعمله • تقـرالى الجـوابات اللى بتبعتها لأبوك وآمك •• وأصحابك • اذا دخلت فيلم تحكيه لى • أنا من سنين مادخلتش سينما • وبعدين الكتب الكثيرة اللى انت جايبها معاك دى • فيها ايه • أنا يايوسف من أربعين سنة هنا • عايش على أمل انه واحد زيك ييجى • يمكن اليوم اللى انت اتولدت فيه أنا كنت باتمنى الامنية دى • أنا وانت من هنا ورايح حته واحدة • الاستـراحة كلها تحت أمـرك حتى لو انتهت مدتك الرسمية • حتفضل معايا ، أنا هنا الكل فى الكل • ياما قضيت سنين مادخل على أحد غير الصراف ييجى يسلم لى الماهية • شوف • حتى المديرية ماعرف طريقها فين • هما اللى يعرفوا طريقى •• »

★★★

•• أقول كل شيء ولا أقوله ، الآن لم يبق لى الا أنت ، خطابى اليك ياحبيبى • هو الشيء الوحيد الذى

أكتبه على رصيف المحطة ، ومن يدرينى ربما فتحوه ، وأخذوه ليعرفوا ماقلته لك ، أما خطابات أمى وأبى وأصحابى فأنا مطالب بتلاوتها أمام شىء لن أقول لك ماهو ، انما .. انه قوة لابد أنا ملاقى حتفى على يديها ، الناس هنا ياسامية غير الناس ، والعيون غير العيون ، الحياة غير الحياة ، كدت أبكى عندما أدركت فى لحظة بعينها أننى لم أفكر فيك يوما كاملا ، ملامحك بدت لى باهتة ، أنا لا أكذب عليك ، بل أصارحك تماما ، كدت أجرى لاطما وجهى ، صرعنى الحنين اليك حتى لو أرسلت صورتك الى فلن أستطيع الاحتفاظ بها ، ولا تعليقها فى مكان ظاهر ، هذا الشىء لو رأى رسمك ، أخاف عليه منه ، ربما تعقبك ، ربما ذهب اليك فى مدينتنا ، ربما قضى عليك كما يقضى على ..»

★★★

ـ يوسف .. هات فلوس عشان الغدا ، اسمع ، هات اللى معاك كله ، انت الفلوس حتعمل بها ايه ، ماتخليش معاك غير المصروف ، وده خده منى كل يوم ،

★★★

**الاثنين ١٧ يناير :**

منذ مدة لم تصلنى خطابات من سامية ، حيرها ردى ، الآن أخاف عليها . حتى لو عدت الى المدينة ، حتى لو نقلت ، حتى لو رجعت ورأيت البحر كل يوم ، هل يعود ماكان بيننا ؟. هل نجرى بنفس الحيوية ، نضحك ، نأمل ، نتبادل القبلات ؟

★★★

**الأربعاء ١٩ يناير :**

صباح اليوم طلبت المصروف من عبد المقصود ، أخرج محفظته الكبيرة . قال ان الدنيا برد ، وقال اننى صرخت مرتين أثناء نومى وأيقظنى ، كان يقف على بعد متر منى ، عيناه ثبت السواد فيهما ، فى الخارج علا ضجيج قطار ، تقدم منى ، وأمسك عنقى . يده دافئة ، أنفاسه مشبعة برائحة الدخان ، لم أتحرك ، قيدت مكانى بآلاف القيود ، أحاطنى بذراعه . قال انه لم يكف طول الليل عن الحلم بحسنية التى تمنى زواجها من عشرين سنة ، ولم يقبل أهلها ، قال انه لن يدعنى أذهب الى المصلحة ، سحبنى الى الحجرة مرة ثانية ، وكانت الشمس ضعيفة عاجزة . وكان يرتجف وريقه

يسـيل . لايعى . مـا الذى يقـولونه اذا لم أذهب .
وهمس انه اليوم سيطبخ حمـاما محشوا بالفـريك ،
وعلا ضجيج قطار .

★★★

يروح المدير فى الحجرة ويجىء ، يداه معقودتان وراء ظهره ، يثنى شفته السفلى ، يعضها ينفخ الهواء ساخنا من فمه ، يستدير الى يوسف كأنه يود لو يسأل : هل هذا صحيح ، محروس أفندى قال عنه هذا ، كأنه لايصدق . لكنه يثق بكل مايقوله يوسف الآن . بعد عدة أيام من نقله كل كبيرة وصغيرة الى سيادته ، شد على يده ، تأكد له صحة مايقوله يوسف ، كيف . يوسف لم يعرف ، ربما يتولى أحدهم نقل الأخبار اليه ، ثم يقارن مايصل اليه ، يدور المدير فجأة ، يقسم أن ينقل محروس أفندى الى قرى الضفة الشرقية من النهر . يخرج يوسف ، يطلب قهوة ، لايبالى نظراتهم ، يطل على الميدان الصغير من النافذة المجاورة له ، حقا .. أى جرأة فى تبليغ النبأ الى سيادته ، لكن هذا ماسمعه فعلا من محروس أفندى ، البك المدير لايملأ عين امرأته ، لكن هل رآها واحد منكم . هل رأى الجوع المطل من عينيها ؟

★★★

.. حتى اننى أرجو آن تعذرنى . ذهبت بالخطاب الى صاحبتى سعاد ، فهى تعرف كل شىء بيننا . لكنها لم تفهم لم تعرف ، قالت ربما حبيبك فى ورطة ، لكن الخطاب به ماهو آشنع من ذلك - ماذا جرى ياحبيبى ، هل يهددك شخص ما ؟ هل اختطفتك عصابة ؟ هل أذاك المدير ؟ ماذا جرى ؟ آين خطط مستقبلنا ؟ آين ماتواعدنا عليه ؟

★★★

فى الصباح ، آعطاه المصروف وهو متمدد كالقتيل، فمنذ آربع ليال يرقد من الغروب حتى خروج يوسف لايتحرك ، آخر الليل بدا متوحشا فاقد الوعى ، آلمه حتى صرخ ، بالأمس كاد يوقظه ليبادله الحديث ، فالوحشة شديدة ، ولم يعد يقتل الوقت فى القراءة ، كوم عبد المقصود كل الكتب فى الحجرة الأخرى ، لأنها كما يقول تشغل يوسف عنه ، آطل يوسف من النافذة غير أنه لم يجد الرجال الذين يجيئون الى القنطرة ، هاهو يعبر الطريق الخالى الى المقهى ، يقول الخادم ان البلدة لم تر بردا كهذا . منذ لحظات توسط الميدان الكبير . تعب فجأة . البيوت حوله ، صامتة ، كالحة .. كأن الحجارة لها عيون وآذان ، انه وحيد حتى النخاع

واليافوخ ، لا وقع أقدام يسمع فى المدينة الا له ، جرى فى الميدان ، الأهالى ينظرون من وراء شيش النوافذ الماثل فى اتجاه الطريق .. كاد يصرخ ، مطالبا أى أحد ، أن ينتزعه من هذه الشوارع ، تلك البيوت ، المقهى حوله خال ، كل ماجرى يبدو له وكأنه يجرى أول مرة ، خطاب سامية الحزين مدفون الآن فى درج مكتبة ، الشيء الوحيد الذى أخفاه ، من يدريه ، ربما يعرف عبد المقصود كل شيء ، فمنذ ليال سأله بالحاح عن علاقته مع النساء ، يوسف يتساءل بمرارة ، لماذا يخفى عنه الخطاب ؟ لو تجيء سامية الآن ، لا آمال تبنى ، لا حديث خافت مهموس يدغدغ ماوراء الأذن ، لا قبلات ، لن يطبق البحر على جسميهما كالخيمة اذ يغوصان فيه حتى العنق ، لن يقفا أمام فتارين الأثاث ، هذا الركن يصلح فى الانتريه ، يوسف .. الصالون لابد أن يكون مودرن ، كأنه يدرك ضياعها أول مرة .. الآن سامية غريبة ، أمه ، أبوه ، كل أيامه البعيدة فى مدينته المغسولة بماء البحر ، عض راحة يده .. يخاف أن يرى سامية فجأة ، ستعرف كل شيء ، تهرب ، تجرى ، فربما أخذها من يدها ، وذهب بها اليه ، فعلا ، ضاع كل شيء .

يوسف يقوم واقفا ، الابر المدببة تنفذ الى كليتيه، على الناصية . دكان لبيع أدوات الحلاقة زجاجات العطر ، الأمواس أنواع ، المقابض الحمراء ، السوداء ، الزجاج متسخ ، أصابع قدميه تتوتر داخل حذائه ، تتشابك يداه ، ربما رآه عبد المقصود ، يسأله لماذا يحملها ؟ يعرف بسرعة ، ربما يرقبه الآن . ربما صاحب المحل يعرفه . يضربه عبد المقصود . يمزقه ، يرميه فى الترعة ، لن يدري أحد ، الحيرة تشطره . يزداد الضوء قتامة ، والبرد ينفذ الى رئتيه ، غمامة كبيرة تزحف فوق البيوت ، يرفع عينيه ، تحتوى وجها مشوه الملامح ، جاحظ العينين ، كاد يعرف صاحبه ، لولا أن الريح أزاحتها بسرعة ، يخرج صاحب المحل فجأة . يقول وعيناه محملقتان الى السماء : المطر لاينزل هنا أبدا .

# ناطق
# الزمان

## مفتتح

فى آخر الزمان ، يقـوم المهـدى المنتظر ، ناطق الزمان ، يجىء الى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لا حد بعده ، انه يعيش فيها ، لكنه خفى لايبين ، وفى يوم معين ، لحظة بعينها ، قيل انها ساعة شروق الشمس ، يظهر ، فيراه أولا الصفوة ، ثم يعم ، عندئذ ، يقوم جنده من كل مكان ، من فجاج الأرض ودروبها يجيئون، آمنين ، موحدين ، فيملك الدنيا شرقها وغربها ، كمـا ملكها سليمان الحكيم ، وذو القرنين ، قال الثقاة انه لو

ظهر ثم اختفى ، وبقى فى عمر الدنيا يوم واحد ، لأطال الله عمر ذلك اليوم حتى يبعثه رب العالمين ، حينئذ تمتلىء آخر أيام الدنيا عدلا وسلاما ، من بعد أن ملئت ظلما وجورا .

## جمع الكلمات

هدأ القطار سرعته ، انزلق سامى من فوق السطح الى فراغ مابين العربات ، قفز الى الأرض ، الهواء بارد ، يقول ان الشتاء بانتظاره ، باع كل شىء من أجله ثم فارقه . سامى نهار هجره الضوء . فى الميدان حركة ليالى الشتاء ، أصدقاء يفترقون ، جنود عابرون ، مواصلات تشح فتنقطع أوصال المدينة ، عليه أن ينتظر ، يبحث عن مولاه من جديد . سيجمع الحروف يضاهى الأرقام . ينبش ضفتى النيل بابرة ، وحتما يلاقيه كما قابله ، سامى الآن وحيد حتى مرارته ، بلا بطاقة شخصية . نزع كل أوراقه . ربما أذاقوه العزلة ، سجنوه . وأين مخلصه لينقذه ؟ أين ناطق الزمان ، من يجمع كلماته ليوصلها اليه ؟ سيختفى فى الزحام ، يمضى الى أضرحة الأولياء . بعينيه يسأل الناس عنه ، بارهاف أذنيه ، بالذكرى المتبقية ، يزور أمه ، يرثيها ، ينثر القرنفل الحزين فوق قبرها ،

يطلب منها أن تساعده ، يسألها كيف تجلى له ؟ رافقه، أضاع ماأضاع من أجله ، ثم غادره .. كيف ؟

## أول الرؤية

سامى لم يفه بحرف ، بالدموع كاد يبكى ، عاش اللحظة الأولى ، رعشة الميلاد ، خروجه اليومى الصباحى ، السماء زجاجية اللون ، سور باب النصر ، عربات نقل الرمال ، رآه قادما من ناحية جبل الدراسة، قرص الشمس يلمس حافة الصحراء ، كل شىء آعد ، ليس صدفة أبدا ، رآه فى خفقات النهار الأولى ، فى اندفاق اللبن من اناء الى اناء ، سامى يعرفه ، هذا ماقرأ عنه ، قال مقتربا منه :

ـ أنت أنت ..

فى الطريق يخطو الصباح طفلا واسع العينين ، رقائق هواء .

ـ لن تفارقنى ياسامى ، مادمت عرفتنى ، فلا يحدث هذا كثيرا فى الزمان .

أتركنى فى غرفتك .. امض انت الى رزقك فأنا لست محدودا بمكان .

« يبدأ ميلاد سامى . فكر فى اللهجة التى يواجه

بها صاحب المتجر ، هل يتحدث اليه بأنفه وكبرياء ؟ أو بلا مبالاة ؟ كتم مافى نفسه ، لم يبح ، ستجىء لحظة معينة ، يدرك فيها صاحب المتجر ، وزملاؤه البائعون، والزبائن ، ماأدركه هو ، يعلمون أن سامى أول من اتبع خطى ناطق الزمان ، فى المساء عبر كوبرى الجلاء ، تعاوده لحظات قديمة ، تدفق دما ساخنا طريا ، عودته الى البيت ، يعرف أن أمه بانتظاره ، أبوه سيصل بعد قليل ، خروجه لمقابلة هدى ، حركة يدها ، لون نظرتها ، رقة وجهها ، مشروعاتهما المشتركة ، تخيلهما شكل البيت الصغير المنتظر ، وقوفه أمام الهدايا ، يتمنى لو اشترى لها ، هذا القماش ، تلك الحقيبة ، يسرع الخطى ، يقابلها ، تضحك فرحة ، آه من حيرته فى ليل المدينة ، البيوت قضبان سجن ، أين يذهب ؟؟ يود لو يوقف أى رجل مار ، فقط يتحدث اليه ، فترة مابين السابعة عشر وعامه العشرين ، بسرعة مرت ، لم يعشها ، أين راحت ؟ كيف ؟؟ كأنها ستعود من جديد ، فيض الآمال ، اعداد المشاريع ، لحظات ماقبل النوم ، الآن .. يعرف أن أيامه العطشى كأرض جفاها النيل ، ستنبض من جديد ، بكل ماراح ، ماضاع ، صوامع الغلال الفارغة المنخورة تمتلىء من جديد ، يشم رائحة التين فى الطريق الضيق المحفوف ، بمجرى

النيل فى قريته النائية ، يمشى مع أبيه • سامى لم يزر بلدته منذ سنين ، بعد اليوم ، لن تعصاه كلمة «لو» فى ميدان التحرير ، أمام محل يبيع الألبان ، تتصدره زجاجة لبن كبيرة ، آلة عصير مانجو ، مناضد ، همس شفاه ، قاوم نفسه ، آه لوصرخ ، يطلع فوق برج القاهرة ، يدور بهليوكبتر ، يشق فراغ مابين الأهرامات ، يعبر الكبارى الصغيرة المصنوعة من أخشاب النخيل ، يطوى مدقات الجبال ، يزعق •• أبشروا •• ظهر قائم الزمان •• ناطق الزمان •• جاء العدل والسلام ••

★★★

يطل من عينيه آمان ، آه ياأب اليتيم ، ياعائل الشريد ، يامنجى الغرقى ، نطق فارتجف سامى :

ـ أحسنت •• لكل لحظة أوانها المحتوم ••

بينهما صمت شفاف نقى كماء الورد ، أصوات العصر تجىء من الحارة ، يسمعها سامى أيام عطلته بمفرده ، ثرثرة النساء ، نداءات الباعة ، يتأمل ايقاع أصواتهم وتنوعها ، «ياخس ياحلو قوى» • «أصلح بوابير الجاز» • «الوداع ياملوخية» • أوان بعيدة تسقط ، موقد يشتعل ، صفارة نائية ، مجهولة المصدر ،

رفع عينيه ، وجه ناطـق الزمان ، لايمكن من خـلاله تحديد العمر ، ربما قال ناظر ، انه مليح ، شاب ، ربما أكد مجرب حكيم ، آنها ملامح شـيخ جاوز الثمانين ، محير ، متى مولده ؟؟ هل لمثله أم عانت آلام المخاض ؟؟

ـ طالت رحلتى .. غدا يأتى طوال السنين ؟؟

الليـلة ، يتم سـامى عامه الثلاثين ، من منتصف الليلة ، ينحدر العمر ، آيام رمضان الأخيرة تقول آمه ، مانصـومه لن يتكرر ، آيام شـبابه آيضا ذابت ، قال ناطق الزمان انه سينزل الى العالم ، خفى ، واضح ، ظاهر ، باطن ، سيعرفه المقربون ، بصيته يزعقون ، الأمر فى هذا الزمان صعب ، عسير ، منذ مئات السنين انتقل بين القرى وآسـواق المدن ، عبر جبال الثلوج البعيـدة ، الطرق الصحراوية المؤدية الى الواحـات ، بعضها لاوجود له الآن ، لم يطلب منه آحـد تصـاريح سفر ، واذا استبد الفضول بمخلوق فهو طواف لايهدآ له قرار .

ـ أمـا الآن .. فالحـذار .. الحـذار .. كثر الأعداء ..

سـامى الآن يشـم رائحة آبيه ، عودته كل ظهيرة بأقراص الطعمية الساخنة ، آمه تقعد آمام باب الحجرة ،

ترتق قطع القماش القديم ، تصلها ببعضها ، بتأن تحاول ادخال الخيط فى ثقب الابرة ، سامى يشد ثوبها، تقول : اسكت ياسامى . اسكت ياحبيبى . قال ناطق الزمان ، ان الاعداء لاينتهون ، منذ أن طاردوه زمن الخلفاء الأمويين ، ثم العباسيين ، اضطر الى الاستتار فى بلدة صغيرة ، رقيقة ، كقصيدة شعر ، نائية فى الشام . اسمها سلمية ، منها انطلق دعاته ، غير أن الخلاف دب بين الأتباع ، ظهر أكثر من واحد فى المغرب ، فى الهند ، فى مصر والسودان ، ادعى كل منهم أنه هو ناطق الزمان ، لكنهم خابوا جميعا . بقى هو مستترا ، سامى ينظر الى مولاه ، يسمع اقتراب الليل ، يرى أعوامه الثلاثين ، زمان .. زم أبوه شفتيه . فرح بنجاح ولده ، قال انه سيبيع ما أمامه وما وراءه ، سيحمل حقائب المسافرين ، يقشر عيدان القصب فى مخازن محلات العصير . المهم أن يتم سامى تعليمه ، سامى دخل الجامعة ، بالتحديد كلية الطب ، ربما جاء تعيينه طبيبا لمستشفى البندر ، يمتطى الحاج سلامة أغنى مشايخ البلدة ركوبته ، يمضى الى المستشفى، الثقة تملؤه ، الطبيب هو سامى ابن هارون القط ، أى والله هارون عرف يربى ، يقول سامى :

ـ يمكننى أن أعمل لأساعدك .. وفى نفس الوقت ..

يصيح أبوه : أبدا ، أبدا .

همس سامى وعيناه تحتويان ناطق الزمان :

ـ أينما ذهبت تتحقق الأمنيات . لن يتحسر انسان .

يقترب الغروب ، لايطيق سامى البقاء فى حجرته، كل مايراه ، يتدفق اليه . حزين . يفصله عن العالم بحر صعب العبور ، مولاه يتمتم بأدعية تنأى بالوحشة، أصابعه تمسك طرف ردائه الأبيض ، فى أى عصر نسج ، من أى قماش هو ؟؟ قال ان غربته لن تطول ، لن يرى أكثر مما رآه ، هنا فى مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما ، قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه فى سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجرى فى العالم ؟؟ كاد سامى يبكى ، يسمع نواح أمه .

ياليتنى قبلك .

طفشت فى الحارة ، تشد ثياب النساء ، تهيل التراب فوق شعرها ، تعض نفسها ، تقول للرجال

العـابرين • راح أبو سـامى • راح من يعولنا • راح رجلى • من يعولنا ؟؟ رجلى ؟؟ ألفاظ توجع سامى ، ينزل ثقل فى دمه ، تعريشة الأسرة انكسرت ، الدفة التوت • الربان هوى فى قاع اليم ، النخـاع انسـل هاربا من تجاويف العظام • طوال شهور تلت ، أمه تلقى أحزانها فوق أمور صغيرة وقعت ، لو أنه لم يذهب الى أقاربه فى مصر القديمة لعاش ، لو أنه رأى اختـه نظلة • راح محسورا لم يرها ، لو أخذ اجازة ، لم يعرف الراحـة أبدا • لكن مانسبة هـذا الى ماراه ناطـق الزمان ؟؟ عذابات الكون منذ أن كانت الأرض صخرا ملتهبا • ثم نبات وحشى خـال من الانسـان ، الآن الليلة • تولد الآمال ، تمتلىء الوديان خضرة ، تمطـر السـماء فى أفواه المحتضرين عطشا •

★★★

ـ اذن • • أنت تعرف اليوم الذى رحل فيه أبى • •

ليس هذا فقط ، انما يعرف رعشة قلبه عنـدما عرف هدى ، لحظة مجيئها الى المتجر تشـترى فسـتانا بسيطا ، تلاقى عيونهما ، ادراكه مرفأ الحنين ، مـولاه يعرف طوافه الليلى • هدى موجودة فى كل فتاة عابرة ، تطل عليه من مكان خفى ، معه دائما ، يتخذ فى جوف

الليل قرارا ، آن يمشى من الحسين حتى كوبرى الجلاء ، يقف عند الحد الفاصل بين محافظتى القاهرة والجيزة، يتأمل أضواء العوامات الخافقة ، دوامات التراب الصغيرة والورق ، يلفظ اسمها قرب الفجر بصوت عال .. هدى ..

ـ مادمت أتبعك ياضيا عينى يامولاى .. فلن أقطع الأمل فى رؤيتها .

هز الامام رأسه ، ضوء الطرقات هامس ، تنذر السماء بهلاك مجهول ، رآها الامام منذ آلف سنة ، ترى ، ماذا جال بعقول أهل الأزمان البعيدة ، وهم يتطلعون الى السماء ذاتها ، ما آثارته كل لحظة من أحلام ، الهمس المتبادل ، ناطق الزمان عرف الغروب فى قرى الهند الفقيرة ، رآه فى الاحساء ، فى نجد ، بين ربوع الشام والأناضول ، بلاد القفقاس ، بحر الزنج، والبحر المحيط ، تجاوزا شوارع الضجيج ، خرجا الى الخط الحديدى المار قرب الحقول ، المطار الصغير ، الأنوار الزرقاء على جانبى الممر ، تنفذ رائحة الليل ، أنفاس الزرع ، الوقود المتساقط بين القضبان ، المولى يتطلع ، يكشف حجب المستقبل ، يرى مدنا أخرى

منثورة فى أركان العالم ، جزرا صغيرة يسكنها الأعراب والصيادون ..

## البحث وراء التعابير

المراكبية لايأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هـذا المركب عندما رآهما أفسـح لهما مكانا رحبـا ، قال لناطق الزمان ، انه انتظره طويلا ، عند المنحنيات الحادة فى المجرى ، فى جرى الموج ، راح يغنى ، لصوته رائحة أرض الشراقى ، المتشوقة الى الماء ، يذكر امرأة بعيدة وعيالا صـغارا ، يذكر مـذاق البتاو البيتى ، الحليب الصباحى ، رائحة خبيز الظهيرة ، رحلته تستغرق شهرا كاملا ، ينقل الحبوب ، الغلال ، آوانى الفخار ، سامى يرقب خطو الليل ، الليل لاينزل من السماء ، انما يطلع من النيل ، من الضفتين ، من هسيس الحشرات ، ذرات الغبار التى تثيرها أقدام المارة فوق الطرق الريفية ، يترامى اليه تصفيق وغناء ، ربما فرح فى قرية نائية ، تـدوم الريح فتطوى الزغاريد وطلقات الرصـاص ، ناطق الزمان يغوص فى طبقات الظلام بعينيه ، أينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون ، أو يتجاهلون ، ربمـا أدركهم الأعـداء المترصـدون ، فى كل مكان ينتشرون ، قال الامام انهم فى البحار الكبيرة ، فـوق

ثلوج الجبال ، فى ناطحات السحاب البعيدة ، فى الآثار القديمة ، فى المصارف ، قواديس السواقى ، تجاويف الطنبور ، بين آلات القطارات ، حول أذرع السيمافورات ، فى أروقة المستشفيات ، فى الابتسامات الصفراء ، ارتعاشات الجفون ، لو عرفوه لانقضوا بحقد ، عمره آلاف السنين ، يتوارثونه ، سامى يضيع فى رهبة الليل ، يصغى الى نبض العالم ، لايعرف كم انقضى عليه تابعا لمولاه ، شهور ، سنين ؟ توقف عمره عند الثلاثين ، يبدأ من جديد ، أعوامه البعيدة المنقضية بسهولة قاسية لاتصدق ، كأنها سنين غيره ، من يدرى ، ربما لو مد البصر عبر النيل ، يلقى طفولته ، شبابه ، حارة البيرقدار ، وقفته يبيع الثياب ، مساومة الزبائن تغير النهار خارج فترينة الزجاج ، ليس معقولا أن ما انقضى ضاع تماما .. لابد من وجوده فى مكان ، زمن ما ...

★★★

يرتعش صوت الشيخ العجوز ، ناظر مدرسة ابتدائية ، قال انه رأى تباشير الأمل فى انطلاق النهر كل عام ، فى اكتمال القمر بدرا ، قال ناطق الزمان انه لايجىء بالخوارق ، لكن شيئا فشيئا يدرك العالم

الحقيقة فيقوم قومة رجل واحد ، سامى ، يقف عند آخر بيوت القرية ، حافة الصحراء ، يدوس بقدم فى الخضرة ، وقدم فى الرمال ، فى سكون الليل يحكى الشيخ عن رجال ماتوا بعد انتظار الامام طوال حياتهم، كثيرون خرجوا يبحثون عنه ولم يرجعوا ، توهج فى السماء نجم وحيد ، ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الى هنا ، منذ مائة عام قضى بمصر زمنا ، ظهر فى كافة قراها ، نجوعها ، لم يأمن أعداءه كهذه الفترة ، يظهر فى أسواق القرى ، يتحدث الى باعة السمك المقلى ، وقطع البطيخ ، بالضبط قبل انكسار عرابى ، توالت الأيام ، تحسس وقع الهزيمة ، وبدأ الحزن يفاجئه ، لم يهاجمه سنين سجنه الطويلة ، ياه .. لايضارعه الا حزنه العظيم كلما تذكر موت الحبيب ، المنجب النجيب، ابن بنت رسول الله فى كربلاء ، فى كل عام ، عاشر محرم يقيم حدادا يكاد يهلك فيه ، لكن الحذار ، لو قضى لن يقوم أبدا ، لن يعرفه أحد ، أبدا يضيع ، اختبأ فى ثياب الفقراء القتلى كما اختبأ من قبل فى جراح ضحايا المغول بخوارزم ، انطوى مكتئبا ، فى فوهات المدافع المنطفئة ، ناءت أعضاؤه بالهم فاستتر ، لو أمسكه الأعداء لمزقوه قطعا أكبرها فى حجم الحبات الرفيعة داخل ثمر البامياء ، غير أن فلاحا عجوزا من هذه القرية

عرفه ، تحسس سامى بعينيه البيوت فى الظلام ، ربما نام الفلاح الفقير فى بيت من هؤلاء ، ربما طبع أثر قدميه فوق التراب الذى يطؤه سامى الآن . اقتفى الفلاح خطوات الامام ، أقسم الايمان ، وأخذ على نفسه المواثيق والعهود ، لن يعلن حقيقة الامام لأحد ، انهما غارقان فى زمن الهزيمة . الفرحة غاصت من القلوب، أما الحزن فيثقل الجميع ، شاب الأطفال ، قال ناطق الزمان ، ان هذه الأيام البعيدة ذكرته بأيام أكثر بعدا ، عندما دخل سليم العثمانى أرض مصر ، ولعب سيفه فى الرقاب ، فكاد ينهى الحى بها ، عندما اندفع المغول عبر بغداد ، واجتاحوا الشام فى أيام ، رأى فى الأعداء رجالا من قبائل الهون البربرية القديمة ، أعوان تيمور لنك ، الأسبان الغزاة ذابحو هنود الازتيك ، محاربون متوحشون يأكلون لحم الانسان ، ارتعش سامى ، يكاد يسمع وقع سنابك الخيول ، اصطدام السيوف بعظام الجباه ، قال ناطق الزمان لابراهيم الفلاح العجوز ، ربما لاترى تحقيق الآمال ، تموت محسورا ، آصر الرجل على صحبته ، زعق مناديا ربه ، عند قرية «شطب» جنوب أسيوط نسى أهله وماله ، ناطق الزمان أبوه ، كفنه بيديه ، صلى عليه ، يومها تبللت السماء بمطر ، ناءت بحمل غيوم ثقال ، زعق الناس

فى الصعيد ، أهذه نهاية الزمان ؟؟ أحرق الجثمان ، نثر الرماد فى أركان العالم وزواياه ، ابراهيم العجوز تبعه حتى النهاية ، لم يعرف اليأس .. بكى ناظر المدرسة ، العارفون به ، الذين جاؤوا من القرى المجاورة ، طافوا معه البيوت ، يكاد سامى أن يرى الفلاح العجوز ، ابراهيم الراحل منذ مائة عام ، ذهب ولم تتحقق الأمنيات ، أما هو ، سامى فكل شىء يراه دانيا ، يدخل الجامعة يصبح طبيبا ، يسمع صوت هدى ، هدى الآن قريبة منه ، تقول :

ـ مرور سنوات لايعنى شيئا .

تقلب السكر فى كوب الكركديه الساخن ، لحظات صمتها فى أذنيه حديث متصل .

ـ اسمع .. نبدأ معا . نذاكر دروس الانجليزية .

لايرد ، تتدفق فى صدره رغبة ، يحتضنها ، يذيب فوق صدرها حزنه ، ارهاق أيامه ، يرقص فوق منضدة الرخام ، يثب فرحا ، يهدأ ، ينفى آلامه ، آه لو يزعق فى الناس ، تفيض عواطفه ، تعبر ضلوعه ، ولا عاصم بعد اليوم .

ـ لن يستغرق الأمر سنة . تعيد دخول الامتحان ،

وألحقك أنا فى الجامعة - ليست رغبة أبيك .. انها رغبتى أنا ياسامى ..

ينطق سامى ، تتبدل الأشياء ، يرق الهواء ، يقول :

ـ هدى انت رائعة .. انت ملاك ..

ـ ياسلام ياسامى ..

تضيق مابين حاجبيها ، يمتلىء الفراغ بينهما بالآمال ، تبدو له سنين عمله القاسية وهما ، اسراعه ليلحق مواعيد العمل ، الوقوف النهارى الطويل ، ابتساماته للزبائن ، لم يعرف هدى خلال هذه الفترة ، كانت تعيش فى مكان ما ، قبل أن يعرفها ، يفكر ، لابد أنه سيلتقى بانسانة تعيش الآن فى منزل معين ، تتحدث ، تأكل ، ترى من هى ؟ تبرق عيناها فى ذاكرته ، فى اتساعها يرى البلاد التى تمنى السفر اليها ، البيوت المغلقة فى الشتاء ، داخلها أصوات الشارع البعيد ، زعيق السكارى ، هدى تحمل صينية فوقها أكواب الشاى الساخن ، بين يديه كتاب ، فى أنفه رائحة الأثاث البيتى ، تسأله عما يحب أن يأكله غدا ، تتصل به فى العمل ، تدعوه الى غذاء خارج البيت .

ألا تذكر - اليوم عيد زواجنا الثالث .

تحلق ذقنه كل صباح ، تميل تغسل ماكينة الحلاقة، يخطف منهـا قبـلة ، يحتضنها عنـد وقوفهـا أمـام البوتاجاز ٠

ياسلام ياسامى ٠ حاسب الشاى ٠

يدعوها الى السينما ، يمضيان معا ، يسمع صلاة ناطق الزمان ، حديثه الى مريديه ، تضحك هدى ، يبعث أبوه حيا ، مورد الوجه ، فرحا ، لا أثر لشقاء السنين حول عينيه ، ينفض الغبار عن لافتة مدرسته القديمة، تعود طفولته ، آه ماأقسى اسـترجاع الطفـولة ، يأكل كشرى الحاج عبد العاطى ، يفرح لمجىء يوم الخميس ، يعقبه الجمعة ٠ أجازة ، يسمع قبقاب أبيه العائد من صلاة الفجر ، يفرح فى لحظات الهدوء بين أمه وأبيه ، يعاكس الحـاج حامد مـدرس الرسـم الذى يقف فى الفصل ، يتأكد من اغلاق الأبواب والنوافذ ، يتطلع اليه الصغار ، يقول ٠٠ اسمعوا ياأولاد ٠٠ اسمعوا غناء عن مصر ٠٠ عن مصر ياأولاد ، يحمروجهه ، ينظر الصبية الى بعضهم ، يتضاحكون ، يستمر غناء الحاج حامد ، الآن ، يذكر مذاق صوته ، يكاد يبكيه ٠ يتحدث الناظر ، والخفير ، والرجال ٠٠ لكن لابد من مواصلة الرحيل ٠٠

★★★

ـ أرى دبيب أقدامهم ـ أشعر بانتشارهم ـ

أدرك سامى خوف ، صاح طائر غامض فى الفراغ العتيم ، هل يجرؤ انسان ؟؟

ـ أنا لايدنو منى أحد ـ عنـد الخطر استتر من جديد ـ أذوب فى الصخور ـ

ألجأ الى الكهوف الجبلية ـ أغوص فى عروق النحاس فى قاع منجم بعيد ـ

غير أن الأمنيات تشل الى حين ـ

سامى يهوى ، تصدمه أرض مجدبة ، يسفح عمره عند أفق المغيب ، تعـود اليه لحظات احتضـار أبيه ، رحيل هدى ، احترق قلبه يومها ، ما الذى جرى ؟

ـ متى يجىء الأوان الذى لابعـده ولا قبله أوان يامولاى ؟

ـ ربما بعد شهر ـ بعـد سنة ـ علم هذا عنـد ربى ـ

لو يزعق سامى ، يعبر صوته الهواء ، يجفف صديد العيـون ـ يدور مع سـيور ماكينات الطحين ، أبراج الكهرباء ، الجمال المثقلة بالبوص ـ

ـ يكون عمرى انقضى يامولاى . لاأسمع هدى أبدا . أيرضيك ألا أسمع هدى . لاتعود من الحجاز . لا أراها بكرا من جديد . لا أدخل الجامعة . لاأداعب طفلى الصغير واسع العينين . طرى العظام .

زعق ريس المركب ، يلتوى القلع التواء حادا . يخف السواد ، يفصح النهر عن ملامحه .

ـ نشقى من أجل الأجيال المقبلة ياولدى . ينعم أهلها . يشربون اللبن من النهر ، يطرح نخيلهم خيرا وطمأنينة ، يأوون الى مضاجعهم آمنين . الغرباء المفزعون فى سواد الليالى ، يرق هواؤهم ، يصفو ماؤهم .

ارتجف سامى ، أين أنا عندئذ ؟ أين موقع قدمى ؟ أى أحجار تثقل رأسى ؟ الظلمة تغشى عينى جمجمتى الخاويتين ؟ أحلامى تتجمد فى أربعة وعشرين ضلعا ، عمود خال من النخاع . رسغان وساعدان . كل ما أصبوا اليه ، أين أنا حينئذ ؟ أين أنا ؟

★★★

يخوض مياه النهر الضحلة صياد عجوز ، يغرس حربة رفيعة مدببة فى ظهر البلطى والبياض . سامى يتأمل قدمى الرجل ، منتفختان بالرطوبة والطمى ،

أخبرهما أن القوارب تزحم النهر ، صغيرة سريعة ، فى كل منها رجلان ، يوقفون المراكب الكبيرة ، يفتشون أوانى الفخار ، ينبشون أجولة القمح والبلح ، حتى الآلات الصغيرة المرسلة فى الصناديل ، يفكون تروسها ، لم يبد على الرجل أنه عرفهما ، أيضا لم يتضح هل يجهلهما ؟ لكن ما الذى دعاه الى اخبارهما بهذا ؟ عاد صامتا يخوض فى الماء الضحل ، نظر سامى الى مولاه ، لطالما أطبقت عليه جبال أعلى من هذه ، صخورها أقسى ، يعرف العالم شبرا شبرا ، وأرض مصر ، يعرف أى نتوء حجرى عند مدخل سمالوط ، التمثال الأثرى القديم قبلى جهينة ، الغرف التحتية فى البناء المشيد قبل الطوفان ، حيث الجو رطوبة فى الصيف ، دفء فى الشتاء ، يعرف المصانع ، مواعيد تغيير الورديات ، صوت مدفع رمضان فى دمنهور ، السويس ، صوته فى قنا ، يحملق الى فراغ بعيد ، ربما يرى أشياء لا يراها هو ، سامى توجعه خواطر مفاجأة ، ربما يعلو أزيز طائرة ، تطل منها عيون فاحصة ، تكشف المخبأ من الآمال ، يمسكون ناطق الزمان وتابعه الأمين .

★★★

جنود اللورى عند المدينة الريفية الصغيرة ، بكاء

أحدهم على صدر الامام ، آسمر الوجه يتوسط ذقنه وشم أخضر ، مستدير ، باهت ، رآه من زمن ، كان مادة أحلامه ، والصور التى تخللت آيامه ، انه من الأنفوشى، يمتلك دكانا صغيرا يبيع فيه الفول والطعمية ، رأى الامام فى صباه ، فى كل تجويف يفصل بلاط الرخام الصغير الذى يرصع دكانه ، فى مرض آمه وشفائها ، انتظره عند ساحل البحر ، فى آبى قير ، فوق الصخور ، لاشىء ، انما صخور وحشية ، مقطبة الجبين ، تلتقى التقاء صريحا بالسماء والبحر ، لم ينله يآس ، حتما ينطق الزمان ، من زرقة المياه ، من ملوحة طعمها فوق الشفاه ، من الطوابى القديمة ، مواسير مدافع عرابى الملقاه برثاء ، آه يامولاى .. جئت ، وآين ؟ هنا ، ارتجف اللورى ، لانت ذرات الرمال ، مالت عيدان القمح ، ابتهل بقية الجنود ، دمعوا ، نزلا من اللورى ، تساءل سامى ، هل يراهم ثانية ؟ محمد ابن الانفوشى ؟ حسين نساج الكليم من فوة ، عبد الهادى عامل الآثار الصعيدى ، السائق النوبى ، قال ناطق الزمان : حتما سيرجع ، يلقاهم ، هو موجود حتى لو استتر ، فوقهم ، حولهم ، لاتبعده عواصف ، لاتقصيه صفارات انذار آو دوى .

★★★

■ لماذا لم يقل لهم آنة ربما عاد بعد آلف سنة كما أخبرني ؟؟»

بماذا يجيبون لوعرفوا آن الأعمار ربما انقضت فى انتظاره ؟ استعاذ سامى بالله ■ يعرف آن الأعداء يطرقون الوسائل كلها ، ربما بذروا الشك فى حقل روحه ، توجهوا الى الحجاز ■ ذبحوا هدى •• يحضرون دمها الحبيب اليه ، يرمونه على عينيه فيضيع منه البصر ، يقطع من رجوعها الأمل ، شربهما الكركدكه ، همسهما الخفيض ، توقفهما آمام فتارين الأثاث ، متاجر التحف ، تقول هى ■ لابد آن يحتوى الصالون على فازة صينية ، تمثال محارب زنجى ، ترى الأطفال الصغار المصنوعين من الشمع فى متاجر الثياب ، تهمس ، آنا آحب الأطفال ، يخجل ، يتحدد الحديث ، تطلب بنتا ■ يتمنى ولدا ، يكتفيان لاآكثر ، آما اذا جاء الأول ولدا والثانى ولدا والثالث ، تضحك هدى ، لابد آن نصر حتى تجىء مديحة ، يسآل : لماذا مديحة بالذات ؟ لأنها تحب خالتها جدا ■ هى آمها التى لم ترها ، لم تعرف الا هى منذ الرضاع ، يتساءل سامى : هل تذكر هدى بين جدران بيتها المغلق ماقيل ؟ ربما آنجبت ابنة الآن ■ حجازية الجنسية ■ هل اسمها مديحة آيضا ، السماء

خاوية ،صحراء فى عينى سامى ،الذكرى تلون الأشياء، تنأى بالامام عنه ، يفيق الى وجوده ٠

★★★

ـ لابد أنهم يسدون مفارق الطرقات ٠ يختبئون فى عربات الرحيل ٠

يكاد يحس لون نظراتهم ، قسوة خوذاتهم المكسوة بشباك التمويه ، الهلاك فى أسلحتهم ، تهب ريح عاتية، السماء حزينة ، الأرض تقلع ويفيض الماء ، سكت الامام لحظة كالسنين ، ثم قال انه يعرف دربا صحراويا غرب قرية الغنايم ينتهى فى صحراء السودان ، لم تطرقه قدم انسان منذ مر به يتبعه ابراهيم الفلاح العجوز ، يمضيان فيه ، يخرجان شمال أسوان ، خطت قدماه فوق الحصى ، رق الغمام ، غير أن شيخوخة غريبة، زحفت فى عروق سامى ، لكم أحس بقصر عمره ٠ فى مقهى الكلوب العصرى يطوف رجل ضخم ٠ يرتدى معطفا جلديا ٠ فوق ظهره رسم لوحه أحمر ، مشوه الملامح ، بارز الأنياب ، لايدرى أهو لجن أم انسان ؟؟ أربعة شهور ٠ فى كل يوم ، نفس الميعاد يجىء ، يضع بطاقة صغيرة فوق منضدة الرخام ٠

« اقرأ الكف ، حاضر ، مستقبل ، أحلام ، أمنيات سيد سعيد » .

يهز سامى رأسه ، يمضى الرجل ، حتى استبد الفضول بسامى ذات مساء ، شد الرجل كرسياً ، بسط سامى راحته ، ضيق الرجل عينيه ، آسند رأسه الى يده، رأى سكة السفر ، وضيقا فى العمل ، ومرضا فى الصغر .

ـ لكن عمرك قصير . ولو عشت مائة سنة .

ماذا يقصد ؟؟ أى شىء يعنى ؟؟ لكنه قام ، دس بطاقته فى جيبه ، طلب خمسة قروش ، فى هذا الوقت لم يمض على سفر هدى آسابيع ، هجره النوم ، راحة عقله متعة نائية ، لايدرك صاحب المتجر ذرة من همومه ، أما الزبائن فيشيرون ، آعطنا من هذا ، لا .. من الأحمر ، اقطع آربعة آمتار ، لاداعى ، نلف ونرجع ، يشرب الماء تسبقه الأقراص المنومة ، حكى لناطق الزمان عن عذابات الليالى ، سهره حتى مجىء الرجل العجوز مجدوع الأنف ، فى الفجر تماما يصيح : «يانايم قوم وحد الدايم .. بكره تقوم القيامة .. وينصب الميزان ، يبقى اللى وفى يعدى . آما الشقى حيران» يدرك آن يوما انقضى ، يزعق الرجل ، تبقى

النوافذ مغلقة ، من عشرين سنة ، اذ يقترب الفجر ، يصيح رجال الحارة على بعضهم ، الحاج حنفى جساس البهائم ، يدس يده طوال النهار فى الأرحام ليعرف الأنثى المقبلة من الذكر ، يصيح على سعودى الجزار ، سيد الترزى ، على المكوجى ، ينادى أبوه ، فى دفء فراشه ، يسمع وقع القباقيب فوق بلاط المساكن ، اندفاق المياه من الصنابير ، تجمعهم فى الحارة ، عز ليالى الشتاء ، يمضون الى الحسين ، أصواتهم عالية ، تبقى معلقة بين البيوت زمنا بعد ذهابهم .

★★★

آه لو يسأله سؤالا واحدا . هل ينوى الاستتار عنه . الاستتار عنه هو ؟ هو الذى ودع كل شىء ، لايجرؤ على نطق الكلام ، يردده عقله ، فى خطوه فوق الرمال القاسية ، تحت انصهار الشمس الذى يزرع العوسج فى العيون ، يعرف أن الامام يدرك مافى خاطره ، عالم بكل شىء ، قرأ كل ماجرى وماسيجرى فى كتاب الجفر الذى تركه الامام على ، فيه رعشة الأمل ، خفقة القلب ، هم الفكر ، فرحة الغريب بالعودة الى دفء البيت ، آه لو يجيب حيرته . يفك ضيقه ، يلملم عذابه . لكنه لم يفه بحرف .

ماذا يفعل بدونه ؟؟ يسحقه يأس مخرب كالغزاة ، لحيته طالت ، ملامحه تغيرت ، قبل رحيل أبيه ، موت أمه ، قبل حدوث شيء مخيف ، تمر به لحظات يتجسد فيها ماهو متوقع ، عند خروجه من سينما الكواكب ، عودته الى البيت فى منتصف الليل ، يرى اللحظة التى تموت فيها أمه ، بكل سوادها الذى ينزف دما ، عندما رحلت رأى أن الموقف غير جديد عليه ، الآن يهوى قلبه بين ضلوعه ، يرى لحظة يخافها ، استتار الامام ، احتجابه عنه ، هل يقتل نفسه عندئذ ؟؟ وهل هذا سبيل للعثور عليه ؟؟ الآن يجلسان أمام كشك صغير داخله عجوز نوبى ، يحرس ملايين الأطنان من الطفلة المنتزعة من المنجم القريب ، مهجور منذ شهور ، لكن من يتوغل أربعين كيلو مترا شمال أسوان فى الصحراء ليسرق حفنة حجارة أو طن حتى ؟؟ الصخور تغرقها ، تتخذ أشكالا غريبة : وجوه آدمية ، سيوف مشرعة ، بيارق مكسورة ، فيها يرى كل شبر وطئه مع مولاه ، القرى ، الآمال فى العيون ، بلاد الأفغان النائية التى شرعا فى الرحيل اليها ، الهند ، البحار الجنوبية ، سفن صيد الحيتان ، رائحة العشب فى الغابات ، قرقرة

النرجيلة فوق المصاطب ، تطلع الحراس فى بطاقات الغرباء ، فى الصخور عيون واسعة قاسية فارقت رؤوس أصحابها ، ناطق الزمان صامت ، لماذا ؟؟ لايتحدث عن جيوش الأعداء التى رآها ، أو غضبة الأرض ساعة الزلازل ، الفيضانات ، الأوبئة تكنس البشر ، يسيح بعينيه عبر الأفق ، أيكشف حجب المستقبل ، ربما ضاع منه كتاب «الجفر» الذى يحوى كل شىء ، من بعيد يحبو عويل قطار ، يفاجئه حنين المسافرين ، شعور الغربة المكثف لحظة عودة الأسرى ، لماذا يسكت الامام ؟؟ لماذا يطل الحرمان من جديد ؟؟ يكاد يصرخ ، يطلب منه أن يصارحه بما ينوى ، أما الحارس النوبى فينظر اليه ولها خاشعا ، كأنه قضى فى رفقته العمر كله .

★★★

قال ان عربة لاندروفر ، تتجه الى أحشاء الصحراء ، ركابها أربعة ، يحملون أسلحة ، وآلات تصوير ، قبعاتهم تقيهم الشمس ، تابعها ببصره حتى اختفت وسط أعمدة الرمال الناعمة التى ترتفع من الأرض لتتصل بزرقة السماء ساعة الظهيرة ، تمطى فى الفراغ عواء ذئب ، قال الحارس العجوز ، كأنه يقدم

تقريرا مفجعا . ثمة طائرة حومت الى الشرق ، جرادة ضخمة . يظن البحر مقصدها .

★★★

سامى يرى نفسه الآن مصلوبا ساعة مغيب ، ينادى الامام أن يظهر ، يعيد ما انقضى ، كان كل ليلة يمضى الى مقهى مصطفى درويش بميدان الحسين ، يشرب الحلبة ، ينظر البنات المسرعات الى بيوتهن . يرى رجلا مجذوبا يلف حول رأسه عمامة حمراء فى لون الدم . يلبس جاكتة عسكرية عليها شارات ونياشين . تجاورها أغطية زجاجات البيرة ، البيبسى كولا ، يرفع سيفا خشبيا ، يترصد أعداء يراهم هو ، يطارد أجانب خان الخليلى اذا ماحاولوا التقاط صورة له ، صار يقف فى الميدان ، لحظة الغروب ، ينادى الليل ألا يقبل ، والنهار ألا يرحل ، يرميه العيال بالطوب .. «بلعو .. بلعو ..» عند حارة الوطاويط رآه دامى الوجه ، يمسك احدى أسنانه بيده ، أى بشر يدنو منه ، هو عدو يبغى رأس الحسين بسوء . سامى الآن يرى عنقه فى قبضة جندى يسوقه الى غرفة الحجز فى قسم ، يلقيه بين اللصوص فى غرف الحجز . يسألونه لماذا جاء ، أى تهمة ؟ بماذا يجيب ؟ لايأخذه يأس ، يفتش تحت أخشاب الحجرة ،

وراء طلاء الجدران ، فى القضبان التى تسور العمر ، فى غرف التعذيب ، فى اللوريات الرمادية المغلقة ، تأتى امرآة سجين تناديه من الطـريق ، يتعلق السجين بقضبان النافذة ، تحكى له عن آخبار العيال ، ذهاب أخيها الى المحامى من آجله ، آمه بخير ، سيجذب سامى الرجل ، يتعلق بدلا منه ، يسآل المرآة ، عابرى الطريق عن مولاه ، آه ، يترقرق الحزن فى عينيه ، يرى نفسه معتقلا ، آو نزيلا فى مستشفى للأمراض العقلية ، ولو .. سـيبحث عنـه ، ربمـا تخفى بين النزلاء ، فى الأشجار الجرداء ، فى ذرات الرمال المرشوشة بالبول ، كل صباح يكتب خطابا الى هدى ، ينتظر مجيئها فجأة، تطبع أثر قدميها فوق الأرض التى مشيا عليها من قبل ، لكن .. لو آلقاه الأعداء فعلا وراء الأسوار من يزوره؟ من يحمـل خطـاباته ليلقيها ؟ من آين يآتى بطـوابع البريد ؟ روح آبيه تحوم حوله ، يرى آمـه وهما عند أشجان الفجر ، آه لو يقول كلمة ، صمته يلوى روحه ، يفيض آسياخا محماة فى قلب سـامى ، لو كلمـة ، آه ياناطق الزمان ياامام ، العمر الطويل تمهيد للحظات الصمت هذه ، آهكذا .. ببسـاطة حادة مرهفة كحد السكين .. أهكذا ؟

# خراب
# الجسور

## ( ١ )

« •• عندما سمعت صوت آختى «سنوات» • على الطرف الآخر من التليفون تعجبت ، تساءلت عما جرى، لاتحدثنى هنا اطلاقا • تشير الساعة الى تجاوز الثالثة والنصف ، بدا صوتها بعيدا مما آجهدنى فى التقاط الألفاظ •

ـ من أى مكان تتحدثين ؟؟

ـ تحت البيت •

ـ بيتنا ؟؟

ـ طبعا • من الاجزخانة • باقى لك وقت طويل ؟؟

ـ حوالى أربع ساعات .. ثم أذهب الى الكلية .

ـ هل جرى شيء ؟؟ ارفعى صوتك .

ـ أنا مصرة ناكل معا . أتمنى الحديث اليك . من مدة كبيرة لم نقعد على مائدة واحدة .

ـ لابد فيه حاجة .

ـ أبدا والله . نفسى أتكلم معك .

ـ لكن ..

ـ ولايهمك . أقضى شغلك ومهما تأخرت . أنا منتظرة .

لم أرها أثناء الحديث ، لكن صوتها ، تدفق الكلمات ، أوحيا بالبهجة التى تزحم روحها ،رأيتها تقف ، تحيط بوق السماعة بيدها ، صوتها خفيض ، تشب على أطراف قدميها ، تقطب عينيها اذ يرق حسها . « .. نفسى أقعد واتكلم معك ..» تختلف مواعيدنا ، تضمر أوقات لقائنا ، تقل مرات أحاديثنا . أول النهار لا ألمح الا آثار عملها المبكر فى البيت ، نظافة الصالة . افطارى فوق الصينية الخضراء المنقوشة بورود حمراء . أطيل تأملها ، ومتابعة فروعها المتشابكة ، طبق فول ، بيضة مسلوقة . ملح ناعم

مخلـوط بفلفـل ، آكل بسرعة ، لا أنظف الأطبـاق ، «سـنوات» تنفض الغبار عن الكتب ، تلملم الملابس ، تخصص يوم الثـلاثاء للغسـيل ، تنهى كل شيء قبـل وصولى ، أعود متعبا ، يضج النهـار فى رأسى ، زحام عربات وعرق ، وبحث فى أدغال القواميس عن معان مبهمة ، ألوذ بفراشى الضيق فى ساعة متأخر ، أسـمع خطواتها الخفيفة ، تلامس مشـاية اللوف فى الطرقة ، تطل على ، تقف بباب حجرتى ، عينـاى مفتوحتـان ، لا أتحرك ، لا أنطق حرفـا ، أخبىء يقظتى ، أضيـق بحروف خفيفة قـد نتبادلها ، تصغى ، ربمـا الى وقع انفاسى ، تتراجع على مهل مخلفة همسا من رائحتها فى الغرفـة ، اسـتعدت ملامح صوتهـا ، «نفسى أقعـد واتكلم ٠٠٠٠٠» أى مناسـبة أو حدث ؟؟ فى زحـام حياتنا تفقـد المناسـبات أجهل يوم ميـلادها ، أعرف ابريل لكننى لا أدرى اليوم ، لا نتبادل الهدايا ، توقفت عن ترجمة البحث ، مكاتب الصـاج مصفوفة أمامى ، فى السـقف تدور المروحة الكبيرة على مهل ، أى جدوى لهذه الدورات ؟؟ الحـر يتمدد فى الفـراغ ، استعدت هدوء البيت ، صورة أمى وأبى ، تطل علينا من اطار كبير ، طرقت صاج المكتب بقلمى ، «٠٠ نفسى أقعـد واتكلم ٠٠٠»

## ( ٢ )

بدا الليـل غطاء كثيفا من غـربة وارهاق ، أرى ذرات الفراغ ، عاط بوق عياطا متصلا انقطع فجأة ، أى أمور شغلتنى ، أضعت حديث «سنوات» منى ، أى واقعة بالتحديد ؟؟ خروجى من المكتب ، تحسس جيوبى بحثا عن دفتر تليفونى ، ضيقى وعودتى الى الكتب ، اخراج مافى الأدراج ، فض المظاريف ، ثم يبرق خاطر كطلقة ، افتح الحقيبة ، أتناول الدفتر ، أقلب وريقاته، أضمه فى جيب قميصى ، كيف نسيت ماقالته ؟؟ بعد المحاضرة الثانية ، وقوفنا فى الطرقة أمام المدرجات ، مجىء مجدى يقضم رغيفا صغيرا سـألته ، من أين ؟؟ أشـار الى الخارج ، اعتبرت هـذا عشـاء يكفينى ، «سنوات» فى عينيها وحشة انتظار ، تقف أمام المطبخ، تمسك خصرها بيديها ،

ـ قم واغسل وجهك ، أعددت مايسرك ، ولم أنس السلطة الخضراء ،

ينتصف الليـل بعـد قليـل ، أقاوم ثقل جفونى ، لا أدرى ما الذى يحـرك « سـنوات » بخفـة هكذا ؟؟ ربمـا تخبىء مفـاجأة ، عضضت شـفتى ، استعدت هزهزة الاوتوبيس ، تعلقت بعينين واسعتين تنظراننى

من فوق أحد مقاعد الدرجة الأولى ، نافذتان شفافتان ، يرقان يرفرفان على عالم فيه راحة ، وأمان، ووعود غامضة بالوصول . اتخذت موقفا مناسبا يمكننى من إطلالة عليهما . أحيانا تحولهما صاحبتهما إلى الطريق، كأنها تعرفنى ، وتعرف «سنوات» من أين جئت ، والى أين ؟؟ ازددت قربا ، فى انسيال النظرات نبل أسطورى ، ألغاز حضارة بعيدة . تمنيت النزول ورائها ، أقف على سرها ، أفك رموزها ، تابعت نزولها، اعتذار خفى بكل كيانى ، المحاضرة بدأت فعلا ، هل سأراها ثانية فى أى مكان ، متى ، تقول «سنوات» :

ـ أنظر هذه المجلة الانجليزية . منذ شهور قررت أن أعد لك هذه الأطباق . لن تأكلها مرة واحدة طبعا . انما سأعدها لك صنفا صنفا ، وكلما سمح مصروف البيت . مد يدك . تذوق ..

قضمت نصف أصبع كفته .

ـ الطبق كأنه تجسد خارج الصفحة .

ـ ولكن ..

مدت يدها ، أصبعها يلامس شفتى ، حركة تفيض أنوثة ورقة ، عاودتنى زرقاء العينين ، زرقة جقيقية ، نغمية ، راودنى يقين أننى سأراها فى الحلم ..

ـ لاتخش المصاريف . تكاليف الطعام اليوم بدعوة منى . ياأخى العظيم . عندى بقية نقودى من جمعية قبضتها منذ شهور . أنت مدعو الليلة الى العشاء .

تغدق من عينيها حنو عظيم على . الخطوة الطبيعية أن أقوم ، أحتضنها ، أقبلها ، ثقل يحوشنى ، عواطفنا لاتعبر عنها بالقبلات ، حتى مرات سفرى النادرة أكتفى منها بملامسة اليد ، لانلوح بالأيدى ، ينعقد اللعاب فى فمى ، يبدو الطعام شهيا ، لكن . هل أتساءل عن امكانية بقاء الطعام الى الغد ، تبدو مستعدة لحديث طويل بعد العشاء ، «نفسى أقعد وأتكلم ..» أود اللجوء الى فراشى فى لحظة ، قبل خطوها الى الداخل . ناديت .

ـ سنوات ...

التفتت .

## ( ٣ )

لمحتها .

لم يخنى نظرى ، ولست مخطئا . عند نهاية الكوبرى تتدفق المركبات ، يمكننى القفز من العربة

قبل المحطة . أستدير ألحقها . أتأكد مما رأيته . يبدو النيل ، أمواجه تمضى فى وثبات لينة . النهار لم ينتصف بعد ، لم تمض دقيقتان ، لاتكفيان للعبور الى الطرف الآخر . اذن تحركت الى هذا الاتجاه ، بالتأكيد لا تتأبط ذراعه . انما تمشى بجواره تماما . يلوح بيده ، هى صامتة لكن ملامح وجهها تصل الحديث بينهما ، أدركت تعبيرات وجهها فى رؤيتى العابرة . بخطى تقترب من الجرى ، حاولت دخول الحديقة . صدنى حارس أسمر اللون .

ـ ممنوع . ممنوع ياأستاذ .

لم أجادله ، لابد أنهما اتجها الى الطريق المحاذى للنيل ، ثلاث درجات بها تقترب الأرض من النيل ، مددت البصر ، بلاط مربع كبير ، التراب مخلوط بزهور جافة تتساقط ، رائحة نبات مهروس ، تموت هنا أصوات العربات ، الطريق قريب ، لكن ثمة هدوء متراخ فى الفراغ ، لا أحد هنا ، كيف . فى هذه الساعة من النهار ، حتى العشاق نأوا ، وباعة عقود الفل . والترمس ، والزهور ، واللب ، ومتكدرى الخاطر المعتصمين بهدأة النيل ، تلفت . يمتد الكوبرى كقلعة ضخمة من الصلب والأسفلت ، دعائمه تطعن

النهر . تتحرك العربات بلا صوت يدرك هنا ، كأن حاجزا غير مرئى يجمد الأصوات ، يحول المنطوق الى صامت ، أين ذهبا ، تأخذنى رغبة حادة لأراهما الآن ، أمد لها يدا ، أتعرف اليه ، أطلب منها أن تجيب . هل تحبه ، هل تحبه فعلا ؟ أسأله ، هل يحبها ، أمسك أيديهما ، أميل ، أقبلها ، أنتحى بها ركنا . أصغى الى كل ماتخبئه ، «٠٠ نفسى أقعد وأتكلم معك ٠٠» أخفف عنهما ، أزيح ثقلا تنوء به ، ربما دعوتهما الى عصير فاكهة فى الكازينو القريب ، نمشى ثلاثتنا . ياه ٠٠ لم نخرج أبدا للنزهة منذ وقت بعيد ، لم ندخل سينما، لم نزر أحد أقاربنا معا ، لا أعرف أسماء صاحباتها ، رأيت بعضهن فى البيت ، يتحفظ صافحتهن ، تجهل أصدقائى ، زملائى فى قسم الدراسات العليا ، لا أتساءل عن الاماكن التى أتردد عليها ، أبدا . سأصارحها الآن بضرورة اقترابنا ، لن أمضى الى الكلية لكن الطريق موحش ، الزحام قريب والخلاء هنا عجيب . عيون النيل الخفية تنظرنى . ريح خفيفة تحرك أوراق الشجر ، ربما رأيت أسطورية العينين الآن ، ساتقدم منها ، أحدثها عن «سنوات» . نبحث عنهما معا ، فوق النهر يمضى مركب شراعى متمهلا ، لم ألمح فوقه انسانا . لا أدرى أين ذهبت سنوات . أين

صـاحبهـا ، أين تقيـم زرقـاء العينـين ، أين تخفى أسرارها ، يهبط قلبى بمقدار قبضة يد ، ربما تركب قطارا يحملها الى مدينة أخرى ، ربما سافرت الى بلدة بعيـدة لن أذهب اليهـا قط ، تحـادث غرباء وتناجى غرباء ، ربما .. ربما رحلت رحيـلا أبديـا ، ثلاثة أيام مضت على رؤيتها ، مايمكن وقوعه خـلالها كثير ، أما سنوات ، أين ، وكأننى ألمحها ، لم أود الاصغاء الى ماتكنه الآن ، أثق فى رؤيتهـا ، أدركنى عجز وناء بى أسى .

ـ سنوات .. سنوات ...

( ٤ )

رأيتها تقف بالباب ، أنهيت اضطجاعى ..

ـ تعالى ..

أومأت مرحة ، جلست عند طرف السرير ، تبسط راحتيها ، تضمهما ، تدسهما بين ساقيها .

ـ سأعطلك .

ـ أبدا .

ـ عموما قررت الليلة ألا أنام حتى أراك .

ـ خيرا .

بدلال هزت رأسها .

ـ أبدا .. أراك ..

أطرقت ، على مهل تقول :

ـ وأتكلم معك ..

تتأهب للافضاء بما تود البوح به . فى هذه اللحظة أدركت أننى نسيت تماما ملامح زرقاء العينين . اختلطت بالزحام ، وأشجار حديقة الأورمان والخضرة الخصبة ، لكننى لم أفتقد خلاصة المعانى ، أين ذهبا اذن ؟ كيف ضاعا منى ؟ رأيت ألا أفاتحها فى الأمر الليلة ، ربما امتد الحديث وتشعب الموضوع ، لست متأهبا للاستفسار والمناقشة ، جاءت بنفسها ، هل لمحتنى أثناء بحثى عنها ، منذ أيام أخفت ضيقها ، حتى الآن لم نأكل معا ، أول أمس ، قالت انها لن تدع يوم الجمعة يفلت ، ستغلق الباب ، لن تسمح لى بالخروج .

ـ هل أعطلك ؟؟

ـ أبدا . أبدا .

تعض شفتها السفلى . بحركة خاطفة تتربع فوق السرير ، نظراتها جانبية ضاحكة ، لم أعتد هذا الخجل

الأنثوى ، عندما أنظر الى صورها أثناء الطفولة ، لا أتعرف فيها على مقدمات هذه الأنثى التى تفيض حيوية ، تستعد للحديث ،

ـ تعرف ؟

لحظة نطق الكلمة ، بلا قصد ، نظرت ساعة معصمى ، تمضى العقارب الى الثانية صباحا ، قامت ،

ـ واضح أننى أعطلك ،

بريق الحماسة خبا فى عينيها ، الألفاظ صرعت عند طرف لسانها ، تدلت يداها ، قطعت حبلا يصل الأشرعة ، مزقت وصلا كاد يتم ،،

ـ أبدا ، اننى أسمعك ،

عبثا تلتئم الضفاف ، أعطيت ودا رائقا فى عينيها ،

ـ أعرف مشاغلك ، لن أعطلك ،

فى صوتها خيبة من آوشك على بلوغ المراسى ، ثم اكتشف وعورة القيعان ، نتوءات الصخر الحجرى ، فعلا سألقى راحتى بمفردى اتمدد قبلك ، استدعى حوادث يومى ، أرقب دولاب الكتب فى العتمة ، قبل خروجها صحت :

ـ ياه • كدت أنسى • خيـل لى أننى رأيتك فوق كوبرى قصر النيل عند الظهر • •

ـ أنا ؟؟ أبدا • أنا لم أفارق عملى اليـوم كله • يمكنك أن • •

تبدو فرحة قليلا بتلميحى ، صـدور اهتمام من جانبى ، ربما استعادت حماستها • تعود الى الجلوس ، تحدثنى عما تكتم ، أبدا ، الصدأ يخنق البريق ، تثاءبت، أغدقت حنوا على صوتى •

ـ أبدا ياسنوات • يكفى قولك هـذا • خيـل لى فقط •

( ٥ )

لا أدرى كم نمت ؟ فى هدأة الليل اذ يدركنى قلق، أعود جنينا أتلمس جدران الرحم ، يثقلنى همود الليل، بينما يعدو النهار فى رأسى ، أرى مالم أتوقف عنده فى يومى الراحل ، أستعيد ملامح عجـوز يمشى مرتجف الخطى • يوشك أ نيقع ، بعد أيام أدركت هدفه ، فتاة سمراء صغيرة ترتدى زى المدارس الثانوية ، تطل من حقيبتها كراسات ، ومسـطرة ، وعلبة ألوان مائيـة ، يقترب حتى يحاذيها ، يبتعد ليعود من جـديد لحظـة

وصول آتوبيس ، تنتشر الحركة بين الواقفين . يزداد قربا منها ، اليوم سمعته يلقى تحية مقتضبة خجولة «صباح الخير» أسرع مختفيا ، تنظر الفتاة الى الأمام . لايعنيها مايدور حولها ، الآن .. تطل زرقاء العينين ، السمات ضائعة . لكن الجوهر لم يفتقد ، تنظرنى من اطار باهت قديم ، لحن غير منطوق يأتى من جزر بعيدة، لغز من حضارة قديمة لم يحل . أضعتها بسهولة ، فى المكتب أثقلنى وجودها داخلى ، قام جلال زميلى ، اقترب منى ، شكا الى ألما فى كليتيه ، قلت اذهب الى الطبيب لعمل أشعة ، وددت لو ابتعد عنى ، عدت باحثا عن معنى العينين ، أمسك يدى ، لامست جنبه الأيسر ، ضغط أصابعى ، هز رأسه ، ليست هى السبب ، قلت ماذا اذن ؟ مال الى هامسا ، قال انه منذ ليلتين فتح النافذة ، لا عمارات أمامه ، يطل على خلاء وسيع ، أصر أن ينام مع امرأته فى ليلة الصيف الحارة هذه ، تمدد بجوارها حوالى العاشرة والربع بالضبط ، يذكر الوقت تماما ، التحما ، التصقا ، احتكا ، مثيرات ومقدمات ، كم استغرق ؟ خمس ساعات كاملة ، حتى كادت تجن ، وعندما صرخت من اللذة كان العرق يبلله تماما ، أثناء الحديث صوته يتمهل ، يبدو بطيئا يبتلع لعابه . أصغيت ، يلقى متعة فى قص التفاصيل ، قال:

بالتأكيد نسمة برد هى السبب ، اذ حدث فى حوالى الثالثة والنصف بعد استلقائه هامدا . آن هبت رقائق هواء نفذت كالابر الرفيعة الى كليتيه . قلت يستحسن الاسراع بالعلاج . البرد فى هذه المناطق وعر وخطر ، لابد من الذهاب الى طبيب ، قام . بعد ساعات عاد الى هامسًا ، خمس ساعات ، آى والله حتى كدت آجن ، راودنى حنين الى أسرة الأطفال ، آنثى فى متناول اليد. لم أسأل «سنوات» عن أفكارها حول الزواج ، الرجل الذى تنوى قضاء بقية عمرها معه . صورته فى ذهنها، ربما أحد زملائها ، لا أعرف واحدا منهم ، لم أزرها فى العمل مرة ، غدا سأسألها عنهم ، عن معارفها ، غدا بعد عودتى سأوقظها لو وجدتها نائمة ، نجلس معا ، نتبادل الضحكات ، آمس كنت قاسيا ، غليظ القلب ، عندها ماتود قوله ، لم أصغ ، الآن .. يترامى من بعيد صوت قطار يعبر الخط الحديدى القريب ، بدا الصوت مطأطأ كأنه لن ينتهى . فى أويقات أرقى يثير فى هذا الصوت حزنا ، وذكرى أياما غائبات ، أرهفت السمع . باب حجرة «سنوات» يفتح ، التقط صريره الضئيل فى نهاية الطرقة ، تتجه الى الدورة ، لم تضىء المصباح . هل أقوم ؟ أقفز أمامها فجأة بعد فتح بابى ؟ دعابة من دعابات الزمن البعيد . فى البداية ستبدى انزعاجا

لكنها تضحك ، نتعانق ، صوت ورق يمزق ، ماذا تفعل «سنوات» ؟ لم يغلق باب الدورة ، واضح أنها تقف أمامه ، أوراق تمزق قطعا صغيرة ، يبطىء صوت التمزيق اذ يزداد سمك الورق فيصعب تقطيعه ، تشد «السيفون» تتدفق المياه بسرعة عالية ، اتخذت من طشيشها ستارا لنزولى من السرير ، أصغيت من خلف باب حجرتى ، أى أمر يحدث ؟ يد طويلة الأظافر خمشت قلبى • تبكى «سنوات» بصوت عال ، نشيجها يصلنى واضحا • أرى جسمها يهتز ، تذرف دمعا ، حتى رأيتها تبكى ؟؟ لحظة انزال «والدنا» غرفة الدفن ، اندفاعها المفاجىء ونواحها الملتاع ، أيدى الحريم تمتد اليها ، تحوشها ، تمنعها • «سنوات» الآن تبكى ، جاءنى صفير القطار من بعيد خيطا متسلخا متعبا ، يذوب فى الليل ، عندما انتهى أحدث خواء كونيا وحشيا صارما يثقلنى ، لم أدر هل بقيت فى الصالة ، هل عادت الى غرفتها ، هل تقف مكانها ؟ تلملم ماتناثر من قصاصات لتعاود أبادتها ، هل ارتابت فى قيامى فآخرست نوحها ؟ هل سمعت فعلا حركة قدميها وطشيش المياه ، غدا •• أستفسر وأعرف ••

## (٦)

طلعت السلم بسرعة ، لن آذهب الى الجامعة . سنخرج مقعدين الى الشرفة . نجلس معا ، لن تضايقنا الشمس . تواجه الآن جانب البيت الآخر ، تدثرنا ظلال حانية ، نأكل معا . نتحدث ، نتحدث ، «نفسى أقعد وأتكلم معك ..» لا أنسى هزة صوتها عبر الأسلاك ، أصغى اليها ، أقول وكان حديثى يبدو عابرا ، خيل لى فى الليلة الماضية أنك قلقت ، وانك تبكين» .

ـ أهلا . أى مفاجأة .

افتقد رائحة البيت فى مثل هذا الوقت ، عبير الاستقرار ، رائحة الأثاث ، والغسيل ، وطعام طهى فعلا ، حملت الحقيبة عنى ، لاتتحرك بخفة ، افتقدت بهجتها ، عندما نبدأ حديثنا ستتبدد الوحشة . باب حجرتها مفتوح .

ـ الله .. عندك ضيوف ؟

ـ سهام صاحبتى . تعال أعرفك بها . تعال .

قامت سهام ، تبدو خجلة .

أخى ياسهام .

فاجأنى افتقاد زرقاء العينين ،كريستالية النظرات،

لحظات فى مركبة عامة ، عمر طويل من علاقة لم تتصل، طاقة قدر فى سماء فسيحة ، تبرق لحظة ، لايراها الا صافى القلب • فوق السرير مجموعة من صورى ، تعرضها سنوات على صاحبتها ••

ـ لاحديث لسنوات معنا الا عنك • عرفناك قبل أن نراك •

ـ ياه •• سنوات تبالغ •

تراجعت برأسها الى الوراء ، تقول • بجرأة تمحو آثار الخجل الأولى ••

ـ أبدا •• ياسلام ••

هل طالعتنى عيناها فعلا ؟ هل رأيت «سنوات» فوق كوبرى قصر النيل؟ تشب على أطراف أصابعها ، تعاودها سعادة ، تود لو بقيت معهما ، عدت الى الصالة ، تنفذ رائحة البيض المقلى • قالت انها لم تعرف نيتى فى العودة مبكرا ، لم أقل اننى رغبت فى الحديث معها ، أسألها وتجيب ، قالت انها لم تشتر بسطرمة لكنها تظن البيض والجبنة كافيين • عادت الى سهام ، سمعتها تقول انه يرهق نفسه كثيرا ، يخرج من مكتب الترجمة الى الكلية ، يواظب على المحاضرات ، قالت انه لن يهدأ

حتى يحصل على الدكتوراه، بعد الماجستير ، قالت بصوت خفيض ، أوقفت مضغ اللقيمات ، آن آخاها مثابر ، قالت سهام كلاما لم أتبينه ، ضحكت سنوات ، عاودني الصوت خفيضا ، تتوالى دقات هاون نحاس من الطابق العلوى ، خطر لى القيام والزعيق مطالبا بالكف ، الوقت عصر ، البعض يغفو من عناء ، سيبدو هـذا منفرا ، عادت سنوات تضحك بهدوء ، ضـحكا رائقا تذكرت بكاءها ليلة آمس ، بدا قضاء العصر فى البيت مقبضا ، نظرت ساعتى ، يمكننى لحاق المحاضرات .

( ٧ )

يبدو الحديث مصحوبا بصـدى ، تنسال الرؤيا ، تقول سنوات انهـا سـتدعونى ليلة ظهـور النتيجة ، سترتدى فستانا لامعا ، أبيض محـلى بلآلىء صـغيرة ، دقيق كايماءة رأس ، تتابط ذراعى ، ندخل معا ، نذهب بعد العشاء الى مسرح أو سـينما . سكتت لحظة ضئيلة كثقب ابرة ، فى بريق البهجـة المح الأسى ، فى تدفق الألفاظ أرى تعثر المعانى واختناقها ، شىء ما لا أقدر الامساك به ، يدفع مرارة مقطـرة الى ركنى عينيها ، كأنها أهينت منذ قليل ، ثم كتمت ماحاق بها ، فجـأة سألتنى : ألا تفـكر فى السـفر ؟؟ قلت : الى أين ؟؟ قالت : الى بلاد الدنيا ، رأيت رحيلنا معـا ، ركوبنا

سفينة لنرى ركنا من الدنيا ، نواجه البحر والمدن النائية والغرباء ، نوقف الناس ونتعرف اليهم ، نقيم العلاقات ونكتب العناوين ، نناقش الركاب فى القطارات ، اذ يحاصرنا البرد فى غرفتنا الصغيرة ، بفندق قديم ، نستعيد طفولتنا، ملامح أيامنا الضائعة ، نذكر حديث والدنا عن استانبول ، رحل اليها فى شبابه أثناء عمله مدرسا ، سنوات تذكر بريق عينيه عند حديثه عما رآه ، ضفاف البوسفور ، مآذن استانبول ، حواريها الضيقة ، لكنة الآذان الغريبة ، قالت : نبدأ باستانبول ، مارأيك ؟؟ أومأت موافقا ، رفعت ذراعا ممدودة الى أعلى ، لندخر المال ، لن أضايقك ، ابتسمت ، لو رأيتك معجبا بفتاة ما فلن أقف حائلا أمامك ، يمكنك تجاهل وجودى تماما ، وكأننى لاأشغل حتى جزءا من الفراغ ، أبدا ،

## ( ٨ )

يرسل المصباح ضوءا واهنا كالوحدة ، البيوت مصلوبة فى سواد الليل ، أربعة رجال يقفون أمام البيت ، أبطأت خطاى ، طفلة صغيرة تلمحنى ، تصرخ ،

ـ أبلة سنوات ، أبلة سنوات ،

أحاطت ساقى بيديها ، ابنة عم محمد البواب ،

تقدموا ، رأيت الشارع ، بلاطه المضلع ، الهواء فى الفراغ ، رائحة غسيل منشور ، رأيت أحد الرجال مرتديا حلة زرقاء بصفين من الزرايير النحاسية • رأيت استانبول ، الصور القديم ، فى احداها أحيط سنوات بذراعى ترتدى عقالا عربيا ، أشهر مسدسا بينما يبدو وجهها الطفل رائقا ، رأيت الرحيل ، الأطباق منكفئة فوق طعام بارد ، بينما يهبط داخلى ثقل من رصاص •

ـ أبلة سنوات • أبلة سنوات •

ـ بقيت هنا مغطاة أربع ساعات • لو نعرف تليفونك لاتصلنا بك •

ـ الاسعاف لم تنقلها •

ـ أخذوا عم محمد البواب لسماع شهادته • هو الذى رأى كل شىء •

ـ كان يقف لحظة •

تنفصل الطفلة عنى ، لا أقدر على النظر الى أعلى ، الى شرفتنا ، رأيت شرفات السلالم لامعة • موضع العينين تجويف خال من الزرقة • انتحت الطفلة ركنا، مثلى تماما ، لم تر لحظة مجيئها الى العالم ، ولا لحظة رحيلها عنه ، لاأتبين ملامح الطفلة ، لا أدرك أصوات المتحدثين ، يدمينى النشيج الوعر •

ـ آه • أبلة سنوات • أبلة سنوات •

# فهرس

الصفحة


- وقائع حارة الطبلاوى . . . . . ٣
- منتصف ليل الغربة . . . . . ٣٣
- ناطق الزمـــان . . . . . ٦١
- خراب الجســـور . . . . . ٩١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٤٥٧٤

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٤٤٣ - ٤

# مختارات فصول

## تصدر أول كل شهر

«منتصف ليل الغربة» . . هى المجموعة القصصية السادسة للكاتب الكبير «جمال الغيطانى» ، الذى لفت إليه أنظار القراء بمجموعته القصصية الأولى : «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ، ثم بمجموعاته القصصية التالية ، ثم برواياته الأربع ، وأيضاً بتحقيقاته ومشاهداته كمراسل حربى صحفى وأديب . والغيطانى ذو صوت متفرد ، تأثر فى لغته بلغة ابن إياس ، والتغربردى ، وكتب المتصوفة ، وأخضعها قصصياً لوسائل فن القص الحديث ، خاصة المنولوج ، والتداعى وتفتيت اللحظة ، وتداخل الأزمنة ؛ فهو وثيق الصلة بمعطيات التراث التاريخى ، والصوفى ، وكتب الأخبار والأسمار والمقامات والحكايات فى تراثنا العربى ، والأزمنة الماضية عنده سيالة ومتدفقة تصب فى قلب الحاضر ، وشخوصه ، على عذاباتهم الحياتية والروحية ، لا يتوقفون عن الحب ، والرغبة فى الخلاص ، والتوْق إلى مستقبل وريف .